المفهوم الفلسفيّ والأخلاقيّ للحُب

في الفكر الإسلاميّ

الدكتور/ أحمد خميس زكي مرعي

أستاذ مساعد الفلسفة الإسلامية - قسم الفلسفة
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

ملخص بحث بعنوان

"المفهوم الفلسفيّ و الأخلاقيّ للحب في الفكر الإسلاميّ"

وردت كلمة الحُب ومشتقاتها المختلفة في القرآن الكريم أكثر من ثمانين مرة؛ مما يدل على المكانة السامية التي يضعها القرآن الكريم لهذه العاطفة الوجدانية، وقد اختلفت استعمالاتها وَفْق درجات متفاوتة ما بين حب الله تعالى ،وما بين الحب المعنويّ مثل: حب العدل، والإحسان، والخير، والتقوى، وما بين الحب المادي مثل حب المال والبنين، ومتاع الدنيا، والحب المتبادل بين الرجل والمرأة كما في قوله تعالى:﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ (١)، وقوله تعالى :﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢)، والمودة هي المحبة.

وقد اهتم المفكرون المسلمون بالبحث عن ماهية الحُب، وأسبابه، وعلاماته، وصفاته، وتعددت مفهوماتهم في ذلك ما بين المفهوم الصوفيّ؛ الذي ينصرف إلى المحبة الإلهية، وما بين المفهوم الفلسفيّ، الذي ينصرف إلى المحبة الإنسانية.

وحاولت عن طريق هذا البحث إلقاء الضوء على المفهوم الفلسفيّ والأخلاقيّ للحُب في الفكر الإسلاميّ، ولا سيما لدى كل من ابن حزم (ت ٤٥٦هـ)، وابن الجوزيّ (ت ٥٩٧ هـ)، وابن القيم (ت ٧٥١هـ)، حتى يتضح ذلك المفهوم.

والإشكالية التي انطلقت منها في هذا البحث تتمحور حول الكيفية التي عالج بها مفكرو الإسلام موضوع الحُب ، ولا سيما عند كل من ابن حزم، وابن الجوزيّ، وابن القيم.

---

(١) سورة يوسف، آية ٣٠.
(٢) سورة الروم، آية ٢١.

Summary of research entitled

" Philosophical and Moral Concept of Love in Islamic Thought"

The word love and its various derivatives were mentioned in the Holy Quran more than eighty times, which indicates the supreme status that the Holy Quran places for this emotional emotion. Its uses have varied between the love of God and between moral love such as love of justice, charity, goodness, And between material love such as love of money and boys, the baggage of the world, and mutual love between men and women.

The Muslim thinkers were interested in searching for the meaning of love, its causes, its signs, its characteristics, and their many concepts in that between the mystical concept, which goes to divine love, and the philosophical concept, which goes to human love.

In this research, she attempted to shed light on the philosophical and moral concept of love in Islamic thought, especially in IbnHazm ,Ibn al-Jawzi and Ibn al-Qayyim. They are one of the most important flags of Islamic thought in the philosophy of love among Muslims.

تمهيد:

وردت كلمة الحُب ومشتقاتها المختلفة في القرآن الكريم أكثر من ثمانين مرة؛ مما يدل على المكانة السامية التي يضعها القرآن الكريم لهذه العاطفة الوجدانية، وقد اختلفت استعمالاتها وَفْق درجات متفاوتة ما بين حب الله تعالى ،وما بين الحب المعنويّ مثل: حب العدل، والإحسان، والخير، والتقوى، وما بين الحب المادي مثل حب المال والبنين، ومتاع الدنيا، والحب المتبادل بين الرجل والمرأة كما في قوله تعالى:﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ (١)، وقوله تعالى :﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢)، والمودة هي المحبة.

وقد اهتم المفكرون المسلمون بالبحث عن ماهية الحُب، وأسبابه، وعلاماته، وصفاته، وتعددت مفهوماتهم في ذلك ما بين المفهوم الصوفيّ؛ الذي ينصرف إلى المحبة الإلهية، وما بين المفهوم الفلسفيّ، الذي ينصرف إلى المحبة الإنسانية.

وحاولت عن طريق هذا البحث إلقاء الضوء على المفهوم الفلسفيّ والأخلاقيّ للحُب في الفكر الإسلاميّ، ولا سيما لدى كل من ابن حزم (ت ٤٥٦هـ)، وابن الجوزيّ (ت ٥٩٧ هـ)، وابن القيم (ت ٧٥١هـ)، حتى يتضح ذلك المفهوم؛ إذ إنهم يعدون من أهم أعلام الفكر الإسلاميّ في فلسفة الحُب عند المسلمين، كما أني لم أجد إنصافًا لهم فيما قاموا به من دراسات رائدة في فلسفة الحُب، ولا سيما من العاملين في البحث الفلسفيّ، ما عدا الدراسة القيمة التي قام بها الدكتور زكريا إبراهيم في كتابه "مشكلة الحُب"؛ إذ إنه قد خصص ملحقًا للحدث عن الحُب عند ابن حزم الأندلسيّ في "طوق الحمامة"، كما خصص الدكتور محمد أبو زهرة فصلًا في كتابه عن «ابن حزم الأندلسيّ» بعنوان الدراسات النفسية عند ابن حزم ، وقد تناول فيها وجهة نظر ابن حزم في الحُب.

والإشكالية التي انطلقت منها في هذا البحث تتمحور حول الكيفية التي عالج بها مفكرو الإسلام موضوع الحُب ، ولا سيما عند كل من ابن حزم، وابن الجوزيّ، وابن القيم.

---

(١) سورة يوسف، آية ٣٠.
(٢) سورة الروم، آية ٢١.

وكانت هناك تساؤلات حاولت الإجابة عنها عن طريق هذا البحث من أهمها:

- كيف عالج مفكرو الإسلام موضوع الحُب ، ولا سيما عند كل من ابن حزم، وابن الجوزيّ، وابن القيم؟
- هل هناك أصالة وابتكار فيما قدمه كل من ابن حزم، وابن الجوزيّ، وابن القيم من آراء مختصة بالحُب؟
- هل كان للفلسفة اليونانية من أثر في آراء كل من ابن حزم، وابن الجوزيّ، وابن القيم في فلسفتهم عن الحُب؟
- كيف فرق كل من ابن حزم، وابن الجوزيّ، وابن القيم بين الحُب والعشق؟
- كيف يكون الحُب سببًا لسعادة الإنسان أو شقاؤه في الدنيا والآخرة؟ وكيف يؤثر الحُب في أخلاق من أحب ؟

من خلال المنهج التحليليّ النقديّ المقارن مع الحرص على الرجوع إلى مصادره الأصلية.

أولاً- المفهوم الفلسفيّ والأخلاقيّ للحُب عند ابن حزم:

يتضح المفهوم الفلسفيّ والأخلاقيّ للحُب عند ابن حزم عن طريق رسالته المسماة «طوق الحمامة في الأُلفة والألاف»؛ إذ نجده قد قسم تلك الرسالة إلى ثلاثين بابًا، منها عشرة في أصول الحُب، واثنا عشر في أعراضه وصفاته المحمودة والمذمومة، وستة في الآفات الداخلة عليه، ثم بابان ختم بهما الرسالة، وهما: باب الكلام في قبح المعصية، وباب في فضل التعفف[١].

١- ماهية الحُب وعلته

ليس من السهل وصف الحُب؛ إذ إن معانيه قد دقت لجلالتها عن أن توصف، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة، والحُب أمر لا ينكره الدين، ولا تحظره الشريعة ؛ بل إنه يصادف أشخاصًا قد رقت طبائعهم[٢].

وقد اختلف الناس في ماهيته؛ إذ إن بعض المتفلسفين زعم أن الله عز وجل خلق كل روح مدورة الشكل على هيئة الكرة، ثم قسمها ، فجعل في كل جسد نصفًا، وكل جسد لقي الجسد الذي فيه النصف الذي قطع من النصف الذي معه، كان بينهما عشق للمناسبة القديمة، وتتفاوت أحوال الناس في ذلك على حسب رقة طبائعهم[٣].

ويذهب ابن حزم إلى أن الحُب هو: اتصال بين أجزاء النفس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع؛ إذ إن المَثل إلى مثله ساكن، وللمجانسة عمل محسوس، وتأثير مشاهد؛ فنجد التنافر في الأضداد، والموافقة في الأنداد[٤].

ونلاحظ أن رأي ابن حزم في ماهية الحُب يقترب من الرأي الذي قاله صاحب كتاب «الزهرة»، والفرق بين رأي ابن حزم ورأي صاحب الزهرة هو في قسمة النفوس؛ فبينما يذهب ابن حزم إلى أن النفوس انقسمت أجزاء عِدَّة ، يرى صاحب الزهرة أن النفوس انقسمت نصفين فقط، وكل منهما يطالب صاحبه[٥].

---

(١) ابن حزم: رسالة «طوق الحمامة في الأُلفة والألاف»، تحقيق إحسان عباس، ضمن رسائل ابن احزم الأندلسيّ، ج١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ٢، بيروت، ١٩٨٧م، ص ٨٨- ٩٠ .

(٢) المصدر السابق، ص ٩٣ .

(٣) محمد بن داود: كتاب «الزهرة» ، تحقيق إبراهيم السامرائي، ج ١، مكتبة المنار، ط ٢، الأردن، ١٩٨٥م، ص ٥٣ .

(٤) ابن حزم: رسالة «طوق الحمامة»، ص ٩٣ .

(٥) المصدر السابق، بقلم المحقق، هامش، ص ٩٤ .

ونلحظ كذلك أن تعريف ابن حزم للحُب لا يخلو من تأثر[١] بالنظرية الأفلاطونية المعروفة في الحُب في محاورة «المأدبة»، ولاسيما في الحوار الذي دار بين "سقراط"، والكاهنة "ديوتيما" العارفة بفنون الحُب؛ إذ يقول: «الناس يقولون: إن المحبين يبحثون عن نصفهم الآخر ويتوقون إليه، لكنني أقول :إنهم لا يبحثون عن نصف أنفسهم ولا عن الكل، ما لم يكن النصف أو الكل خيرًا أيضًا»[٢]؛ مما جعل ابن حزم يقول : «إن المحبة استحسان روحانيّ، وامتزاج نفسانيّ»[٣]، ولكن ابن حزم لا ينص على الأصل اليونانيّ لهذه النظرية، بل هو يحاول ردها إلى الآية الكريمة التي تقول:﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[٤]، وحجة ابن حزم في ذلك أنه لو كانت علة الحُب هي جمال المحبوب، أو حُسن الصورة الجسدية الظاهرة، لما كان الأقل جمالًا موضعًا لحُب، في حين أن الواقع شاهد على أن كثيرًا من المحبين قد يتعلقون بالأقل جمالًا، وهم يعلمون فضل غيره، من دون أن يجد الواحد منهم محيدًا لقلبه عنه، ولو كان الحب علة للموافقة في الأخلاق لما أحب المرء من لا يساعده ولا يوافقه، فلابد إذن من أن يكون الحُب شيئًا في النفس، وأن يكون سر التمازج والتباين في المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال بين النفوس تبعًا للاستحسان الروحانيّ والامتزاج النفسانيّ[٥].

ونخلص من ذلك أن الحُب كما يراه ابن حزم اتصال بين أرواح عاشقة انقسمت إلى أجزاء تلاقت فسعدت، ومتى تباعدت شقت؛ إذ إن المحب يبحث عمن يماثله، ويشابهه، وكلما زاد التشاكل، وتقاربت الصفات تحقق التألف والسكن والحب بينهما، والذي يؤكد ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف» [٦]. والأجساد التي فيها الأرواح تلتقي في هذه الدنيا فتأتلف أو تختلف تبعًا لذلك؛ فنرى الإنسان البر الخير يحب مثله ويميل إليه، وينفر عن ضده، والإنسان الشرير يميل إلى مثله ويألفه، وينفر عن ضده.

---

(١) زكريا إبراهيم: مشكلة الحُب، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٨٤م، ص ٢٦٧.
(٢) أفلاطون: محاورة المأدبة، ضمن المحاورات الكاملة، نقلها إلى العربية شوقي داود تمراز، م/٤، الأهلية للنشر، بيروت، ١٩٩٤م ، ص ١٦٩ .
(٣) ابن حزم: رسالة «طوق الحمامة»، ص ٩٦ .
(٤) سورة الأعراف، آية ،١٨٩.
(٥) ابن حزم: رسالة «طوق الحمامة»، ص ٩٥. أيضًا: زكريا إبراهيم: ابن حزم الأندلسيّ، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦م، ص ٢٣٥ .
(٦) رواه البخاريّ في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب الأرواح، حديث رقم ٣٣٣٦. أيضًا مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب الأرواح جنود مجندة حديث رقم ٢٣٦٨.

ولكن إذا كانت علة الحُب هي استحسانًا روحانيًّا وامتزاجًا نفسانيًّا، لوجود تماثل وتشابه في الصفات بين المحب والمحبوب، لوجب أن تكون المحبة بينهما متساوية، وهو ما يخالفه الواقع المشاهد، فكيف يمكن تفسير ذلك؟

يفسر ابن حزم ذلك بقوله: إن الذي لا يحب من يحبه تكون نفسه محاطة ببعض الحُجب المحيطة بها من الطبائع المادية الأرضية، فلا تحس بالجزء الذي كان متصلًا بها قبل حلولها في البدن، ولو أنها تخلصت من هذه الحجب لاستويا في المحبة، بينما نفس المحب لا يحجبها شيء من هذه الطبائع المادية الأرضية، وهي تعلم الجزء الذي كان متصلًا بها قبل ذلك، فنجدها طالبة له، قاصدة إليه، باحثة عنه، مشتهية لملاقاته، جاذبة له لو أمكنها كالمغنطيس يجذب الحديد[1].

ويخلص ابن حزم من ذلك إلى أننا لا نجد اثنين يتحابان إلا بينهما مشاكلة واتفاق في الصفات الطبيعية وإن قل، وكلما كثرت المشابهة زادت المجانسة وتأكدت المودة، ومع ذلك لا ينفي ابن حزم ما كان للجمال من أثر في الحُب؛ إذ إن النفس تولع بكل شيء حسن، وتميل إلى الصور الحسنة، والمناظر الجميلة المتقنة ، فإذا رأت بعضها تثبتت فيه، فإذا ميزت النفس شيئًا جميلًا وراء هذه الصورة كانت محبتها حقيقية، وإن لم تميز النفس شيئًا غير الصورة الظاهرة لم يكن ذلك حبًا حقيقيًا، وإنما ضرب من الشهوة[2].

ولم يكتفِ ابن حزم بأن يجعل علة الحُب الاستحسان الروحانيّ، والامتزاج النفسانيّ بين أجزاء النفوس المقسومة في هذا العالم، ولكنه يوسع في مفهوم الحُب حتى يصبح معنى الاتصال بين أجزاء النفوس ليس اتصالًا بين رجل وامرأة فقط؛ إذ يرى أن للمحبة أنواعًا متعددة[3]؛ أحسنها وأسماها منزلة: محبة المتحابين في الله – عز وجل – تليها المحبة بين الأقارب، ثم محبة التآلف والاجتماع والاشتراك على مطلب واحد، ثم محبة التصاحب والتعارف، ثم محبة الخير الذي يقوم به الإنسان تجاه إخوته، كما أن ثمة محبة أخرى هي محبة الطمع في جاه المحبوب، ومحبة

---

(١) ابن حزم: رسالة «طوق الحمامة»، ص ٩٦ ، أيضًا: يوسف الشارونيّ : دراسات في الحُب، دار الهلال، العدد ١٨٥، القاهرة، ١٩٦٦م، ص ٤٧ .

(٢) ابن حزم: رسالة «طوق الحمامة»، ص ٩٨- ٩٩ . أيضا: يوسف الشارونيّ : الحُب والصداقة في التراث العربيّ والدراسات المعاصرة، دار المعارف ، ط ٣، القاهرة، من دون تاريخ، ص ٥٤ .

(٣) ابن حزم: رسالة «طوق الحمامة»، بقلم المحقق، هامش ص ٩٥. أيضا: محمد أبو زهرة: ابن حزم حياته وعصره- آراؤه وفقهه، دار الفكر العربيّ، القاهرة، ١٩٥٤م، ص ١٦٧ .

المتحابين من بني الإنسان لما يجتمعان عليه من سر يلزم إخفاؤه، وأخيرًا محبة العشق التي لا علة لها إلا ما تقدم ذكره من اتصال النفوس وتلاقيها وتآلفها، وكل هذه الضروب للحُب منقضيه مع انقضاء عللها، وزائدة بزيادتها، وناقصة بنقصانها، متأكدة بدنوها، فاترة ببعدها، ما عدا محبة العشق الصحيح؛ إذ إنها تنفذ إلى أعماق النفس فتتمكن منها؛ لذلك لا فناء لهذه المحبة إلا بالموت[١].

ونلحظ أن ابن حزم يخالف رأيه السابق القائل: إن المحبة أنواع تختلف باختلاف أسبابها وعللها؛ إذ إنه في رسالة «مداوة النفوس وتهذيب الأخلاق» يرى أن المحبة كلها جنس واحد، رسمها أنه الرغبة في المحبوب وكراهة منافرته، ولها سبب واحد فقط هو الطمع، واختلاف الناس في المحبة يرجع إلى اختلاف الأطماع وتزايدها وضعفها وانعدامها[٢].

والقول : إن الحُب استحسان روحانيّ، وامتزاج نفسانيّ لا يستلزم بالضرورة أن يكون قوامه التبادل – من وجهة نظر ابن حزم– إذ إنه يقيم تفرقة واضحة بين المحب والمحبوب؛ فالحب لديه ليس علاقة متبادلة تتعادل فيها مسئولية الطرفين، بل هو اندفاع من أحدهما، وقبول أو إعراض من الطرف الآخر؛ ولهذا تختلف التزامات كل من الطرفين إزاء الآخر[٣].

وإذا كان الحال كذلك ، فإن ابن حزم لا يتفق مع هؤلاء الذين يرون تجنب الأحباء الذين لا يبادلونهم حبًا بحب؛ لأن الحب اضطرار لا اختيار من وجهة نظره، وهو يعبر عن هذا المعنى في مواضع متفرقة من كتابه[٤]. منها قوله: «وأما استحسان الحسن وتمكن الحُب، فطبع لا يؤمر به ولا ينهى عنه؛ إذ القلوب بيد مقلبها ... وإنما يملك الإنسان حركات جوارحه المكتسبة... أما المحبة فخلقه»[٥].

---

(١) ابن حزم: رسالة «طوق الحمامة»، ص ٩٥ - ٩٦. أيضًا: زكريا إبراهيم: مشكلة الحُب، ص ٢٦٧ .

(٢) ابن حزم: رسالة «مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق»، تحقيق إحسان عباس، ضمن رسائل ابن حزم الأندلسيّ، ج ١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ٢، بيروت، ١٩٨٧م، ص ٣٦٩ ، أيضًا: محمد بنيعيش: الفكر السلوكيّ عند ابن حزم الأندلسيّ، دار غراب، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص ١٠٤ .

(٣) يوسف الشارونيّ: دراسات في الحُب، ص ٤٦ - ٤٧ .

(٤) زكريا إبراهيم: مشكلة الحُب، ص ٢٦٨ .

(٥) ابن حزم: رسالة" طوق الحمامة" ، ص ١٤٤- ١٤٥ .

وينكر ابن حزم قول من يقول : إن صبر المحب على ذلة المحبوب دناءة في النفس؛ لأن المحبوب شخص لا نظير له في نظر المحب، له أن يعفو ويرضى متى شاء[١]. وعند الحديث عن علاقة الحُب بالملل يعود ابن حزم فيؤكد الفرق بين موقف كل من المحب والمحبوب، فالمحب لا يجب أن يعرف الملل طريقه إليه؛ ولذلك يبعد هذه الصفة عن المحبين، ويجعلها في المحبوبين، فهم أهل التجني والمقاطعة، أما إذا اتصف بها محب فذلك يدل على عدم صدقه في الحُب؛ إذ هو لا يثبت على عهد، ولا يصبر على ألف[٢].

كذلك يفرق ابن حزم بين وفاء المحب ووفاء المحبوب، فالوفاء أوجب على المحب؛ لأنه هو الذي بدأ بالمودة ولم يجبره أحد على ذلك. أما المحبوب فهو المقصود نحوه، وهو مخير في القبول أو الرفض، فإن قبل فذلك غاية الرجاء، وإن أبى فلا يستحق اللوم[٣].

وهكذا نجد أن ابن حزم لا يشترط تبادل المحبة في الحُب، بل إنه يرى – على العكس من ذلك – أن من طبيعة الحُب أن يكون هناك محب ومحبوب، وأن يختلف موقف كل منهما من الآخر.

٢- درجات الحُب

للحُب خمس مراحل – عند ابن حزم – فهو يبدأ عادة بالاستحسان؛ إذ يتمثل الناظر صورة المنظور إليه فيستحسنها، أو يستحسن أخلاقه، وهذا يدخل في باب التصادق، ثم الإعجاب، وهو رغبة الناظر في المنظور إليه وفي قربه، ثم الأُلفة وتعني الوحشة إلى المحبوب متى غاب، ثم الكَلَف، وهو غلبة شغل البال به، وهذا النوع يسمى بالعشق، ثم الشغف، وهو امتناع النوم والأكل والشرب إلا اليسير منه، وربما أدى ذلك إلى المرض، أو التوسوس، أو إلى الموت[٤].

٣- علامات الحُب

حدد ابن حزم علامات تدل على الحُب؛ إذ إن للحُب علامات يقتفي أثرها الفطن، ويهتدي إليها الذكي، وهي تدل في الوقت ذاته على تبدل أخلاق المحب من حال إلى حال ، وتنقسم إلى

---

(١) المصدر السابق، ص ١٥٤ . أيضًا زكريا إبراهيم : مشكلة الحُب، ص ٢٦٨ . أيضًا يوسف الشارونيّ: دراسات في الحُب، ص ٤٨.
(٢) ابن حزم: رسالة «طوق الحمامة»، ص ٩٥ - ٩٦.
(٣) يوسف الشارونيّ: دراسات في الحُب، ص ٤٩ .
(٤) ابن حزم: رسالة "مداواة النفوس" ، ص ٣٧٤. أيضًا: زكريا إبراهيم : مشكلة الحُب، ص ٢٧٤ .

قسمين: الأول – علامات تدل على الحُب قبل تمكنه من القلب، والثاني – علامات تدل على الحُب بعد تمكنه من القلب.

أ- علامات الحُب قبل تمكنه من القلب:

هناك علامات تدل على الحُب قبل تمكنه من القلب ،منها[1]:

١- إدمان النظر إلى المحبوب؛ إذ ترى الناظر لا يطرف، ينتقل بتنقل المحبوب، وينزوي بانزوائه، ويميل حيث مال.

٢- الإقبال بالحديث مع المحبوب، فما يكاد يقبل على أحد سوى محبوبه، ولو تعمد ذلك، والإنصات لحديثه إذا تحدث، وتصديقه وإن كذب، وموافقته وإن ظلم، والشهادة له وإن جار، واتباعه كيف سلك وأي وجه من وجوه القول تناول .

٣- الإسراع بالسير نحو المكان الذي يكون فيه المحبوب، وتعمد القعود بقربه، والدنو منه، والتباطؤ في المشي عند القيام عنه.

٤- بهت يقع، وروعة تبدو على المحب عند رؤية من يحب فجأة، وطلوعه بغتة ، أو سماع اسمه فجأة.

٥- يجود المرء ببذل كل ما كان يقدر عليه مما كان يشح به قبل ذلك، كأنه هو الموهوب له، ليبدي محاسنه أمام محبوبه.

ب- علامات الحُب بعد تمكنه من القلب:

هناك علامات تدل على الحُب بعد تمكنه من القلب ،منها[2]:

١- الإعراض عن كل من حضر إلا عن المحبوب، والمجاذبة على الشيء ليأخذه أحدهما، وكثرة الغمز الخفيّ، والميل بالاتكاء ، وشرب فضلة ما أبقى المحبوب في الإناء.

٢- سرعة الرضا بعد التشاجر؛ إذ تراهما قد عادا إلى أجمل الصحبة، وأهدرت المعاتبة، وسقط الخلاف.

---

(١) ابن حزم: رسالة «طوق الحمامة»، ص ١٣ - ١٥ . أيضًا: زكريا إبراهيم: ابن حزم الأندلسيّ، ص٢٣٩ .

(٢) ابن حزم: رسالة «طوق الحمامة»، ص ١٠٦- ١١٣ .

٣- نجد المحب يستدعي سماع اسم من يحب، ويستلذ الكلام في أخباره، ولا يرتاح لشيء ارتياحه لها.

٤- حب الوحدة، والأنس بالانفراد، ونحول الجسم من دون مرض يكون فيه، ولا وجع مانع من التقلب والحركة والمشي.

٥- السهر والقلق ولاسيما عند أحد أمرين: أولهما- عند رجائه لقاء من يحب فيعرض عند ذلك حائل، والثاني – عند حادث يحدث بينهما من عتاب لا تُدرى حقيقته إلا بالوصل.

٦- ترى المحب يحب أهل محبوبه، وقرابته وخاصته حتى يكونوا أحظى لديه من أهله ونفسه ومن جميع خاصته.

٧- البكاء، ويتفاوت المحبون فيه؛ فمنهم غزير الدمع تجيبه عينه وتحضره عبرته إذا شاء، ومنهم جامد العين عديم الدمع.

٨- مراعاة المحب لمحبوبه، وحفظه لكل ما يقع منه، وبحثه عن أخباره؛ حتى لا يسقط عنه دقيقة ولا جليلة، وتتبعه لحركاته.

وأرى أن ذلك يدل على عمق فهم ابن حزم لأغوار النفس البشرية؛ إذ نجده يكشف عن دقائق تلك النفس عن طريق ما عاينه هو بنفسه في الحُب، أو عاينه أحد من أصدقائه، أو روي له من أهل الثقة لديه، وهي علامات تتفق في معظمها مع ما كشفت عنه الدراسات النفسية والفلسفية المعاصرة في الحُب، ولاسيما ما يتعلق منها بالتحليل النفسيّ.

والحُب – من وجهة نظر ابن حزم – يمكن أن يقع بالوصف من دون المعاينة، فتكون المراسلة، والمكاتبة ، والهم، والوجد، والسهر على غير الإبصار؛ إذ إن للحكايات، ونعت المحاسن، ورصف الأخبار تأثيرًا في النفس ظاهرًا؛ فيكون سببًا للحُب واشتغال البال، ويرسم المحب في وهمه صورة للمحبوب، فإن وقعت المعاينة يومًا فحينئذ يتأكد هذا الحب أو يبطل بالكلية[1].

ويعترض ابن حزم على ما يسمى بالحُب من النظرة الأولى، إذ إن من أحب من نظرة واحدة وأسرع العلاقة – أي تعلق القلب بالمحبوب – من لمحة خاطرة فهو دليل على قلة الصبر، ومخبر بسرعة السلو، وشاهد الملل، فكل من يدعي أنه يحب من نظرة واحدة، لا يكون حبه صادقًا بل

(١) المصدر السابق، ص ١١٧ .

ضربًا من الشهوة، كذلك الحال فيمن يزعم أنه يحب اثنين، ويعشق شخصين متغايرين، فإنما ذلك يكون من جهة الشهوة لا الحُب الصادق؛ إذ إنه يسمى حُب على سبيل المجاز لا التحقيق[١].

وإذا كان الحُب – من وجهة نظر ابن حزم – يحدث لدى بعض الناس من نظرة واحدة، فإنه لا يحدث لدى بعضهم إلا بعد مدة قد تطول، ونجد هنا أن ابن حزم يكشف عن عقلية سيكولوجية ممتازة؛ لأنه يربط الحُب بالزمان، ويقيم العاطفة على تعدد التجارب، وارتباطها بموضوع واحد، فيبين لنا كيف أن للاستقرار النفسيّ دورًا مُهِمًّا في تأصيل عاطفة الحُب ودوامها؛ إذ إن هناك من الناس من لا تصح محبته إلا بعد طول المخافتة، وكثير المشاهدة، وتمادي الأنس، وهذا هو الحُب الصادق الذي يدوم ويثبت مهما طالت الأيام والليالي[٢]من وجهة نظر ابن حزم؛ إذ يبدو أن خبرة ابن حزم الخاصة قد دلته على أن العشق السريع هو أقرب إلى الشهوة منه إلى الحُب في حين أن الحُب الذي يتكون بمرور الأيام والليالي لابد من أن يدوم ويثبت على العكس من الشهوة العابرة، أو المغامرة الغرامية الخاطفة[٣].

ويؤكد ابن حزم كذلك أن من أحب صفة في المحبوب لم يستحسن بعدها صفة غيرها مما يخالفها، ولم يَمِلْ إلى سواها، ونجده هنا يكاد ينص على ما اصطلح علماء التحليل النفسيّ اليوم على تسميته باسم (التثبت)، وهو عبارة عن ارتباط المرء في صباه بشخص، أو شيء ارتباطًا وثيقًا، بحيث يدوم هذا الارتباط حتى بعد انتقاله إلى مرحلة النضج النفسيّ، أو العاطفيّ[٤]، ويعطي ابن حزم مثلاً لذلك ما حدث له في صباه فيقول: "إني أحببت في صباي جارية لي شقراء الشعر، فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر، ولو كانت على صورة الحسن نفسه، وإني لأجد هذا في أصل تركيبي منذ ذلك الوقت، لا تؤتيني نفسي على سواه، ولا تحب غيره البتة" [٥].

٤ – صفات الحُب وآفاته:

بين ابن حزم ما يحدث للمحبين من أحوال بسبب ما يمتاز به الحُب من صفات، وما يدخل عليه من آفات، وهي تؤثر في أخلاق المحبين .

---

(١) المصدر السابق، ص ١٢٣ . أيضًا: يوسف الشارونيّ: الحُب والصداقة في التراث العربيّ، ص ٥٤ .
(٢) ابن حزم: رسالة «طوق الحمامة»، ص ١٢٤ .
(٣) زكريا إبراهيم: مشكلة الحُب، ص ٢٧٠ - ٢٧١ .
(٤) المرجع السابق، ص ٢٧٣ .
(٥) ابن حزم: رسالة «طوق الحمامة»، ص ١٣٠ . أيضًا: الطاهر أحمد مكي: دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، مكتبة وهبة، ط ٢، القاهرة، ١٩٧٧م، ص ١٨٢ .

أ- صفات الحُب ، ومنها:

١- الوصل: وهو حظ رفيع، ودرجة عالية، وسرور دائم، ومن معاني الوصل إعطاء المواعيد؛ إذ إن للوعد المنتظر مكانًا لطيفًا من شغاف القلب، وهو ينقسم إلى قسمين: أحدهما – الوعد بزيارة المحب لمحبوبه، والثاني – انتظار الوعد من المحب أن يزور محبوبه[١].

٢- المراسلة: إذ يحاول المحب أن يجعل شكل كتابه ألطف الأشكال، وجنسه أملح الأجناس؛ إذ إنه ينوب عن اللسان في بعض الأحيان إما لحصر في الإنسان، وإما لحياء، وإما لهيبة، كما أن لوصول الكتاب إلى المحبوب وعلم المحب أنه قد وقع بيده ورآه لذة يجدها المحب عجيبة تقوم مقام الرؤية[٢].

٣- الطاعة: من عجيب ما يقع في الحُب طاعة المحب لمحبوبه، وصرفه طباعه قسرًا إلى طباع من يحبه، وربما يكون المرء شرس الخُلق، صعب الشكيمة، جموح القيادة، ماضي العزيمة، حمى الأنف، أبى الخسف، فما هو إلا أن يتنسم نسيم الحُب –كما يقول ابن حزم – فتعود الشراسة لينًا، والصعوبة سهولة، والمضاء كلالة، والحمية استسلامًا[٣].

٤- القناعة: لابد للمحب إذا حرم الوصل من القناعة بما يجد؛ إذ إن في ذلك متعللًا للنفس، وشغلاً للرجاء، وتجديدًا للأماني، وبعض الراحة ، وأولها: الزيارة ، وهي على وجهين: أحدهما أن يزور المحب محبوبه، والثاني أن يزور المحبوب محبه، ولكن لا سبيل إلى غير النظر والحديث الظاهر، والأول أوسع نطاقًا من الثاني، ومن القناعة كذلك أن يسر المحب ويرضى ببعض آلات محبوبه، ومن القناعة كذلك الرضى بمزار الطيف وتسليم الخيال، أو أن يرتاح المحب إلى من يرى من رأى محبوبه ويأنس به[٤].

٥- الوفاء: وأول مراتب الوفاء أن يفي الإنسان لمن يفي له، وهذا فرض لازم وحق واجب على المحب والمحبوب، والمرتبة الثانية هي الوفاء لمن غدر، وهي للمحب من دون المحبوب ،والمرتبة الثالثة هي الوفاء مع اليأس البات، ولاسيما بعد حلول المنايا وفجاءات المنون، كما نراه في وفاء المحب لمحبوبه حتى بعد أن يباغته الموت[٥].

---

(١) ابن حزم: رسالة «طوق الحمامة»، ص ١٨٠ - ١٨١ .
(٢) المصدر السابق، ص ١٣٩ . أيضا يوسف الشارونيّ: دراسات في الحُب، ص ٦٢ .
(٣) ابن حزم: رسالة «طوق الحمامة»، ص ١٥٣. أيضًا يوسف الشارونيّ: دراسات في الحُب، ص ٦٤ .
(٤) ابن حزم: رسالة «طوق الحمامة»، ص ٢٣١ - ٢٣٦ .
(٥) المصدر السابق، ص ٢٠٥ - ٢٠٨ .

ب- آفات الحُب:

١- الهجر: وهو على ضروب، فأولها هجر يوجبه تحفظ من رقيب حاضر؛ فحينئذ نرى الحبيب معرضًا عن محبه، مقبلًا بالحديث على غيره، ثم هجر يوجبه التدلل، وذلك لا يكون إلا عن ثقة كل واحد من المتحابين بصاحبه؛ إذ يظهر المحبوب هجرانًا ليرى صبر محبه ، ثم هجر يوجبه العتاب للذنب يقع من المحب، وهذا فيه بعض الشدة، ولكن فرحة الرجعة، وسرور الرضى يعدل ما مضى، ثم هجر يوجبه الوشاة، ثم هجر الملل وهو الذي لا تدوم معه مودة، ومن الهجر ضرب يكون متوليه المحب، وذلك حينما يرى من جفاء محبوبه والميل عنه إلى غيره[١].

٢- الفراق: وينقسم أقسامًا عدة، أولها مدة يوقن بانصرامها، وبالعودة من قريب، ثم افتراق منع من اللقاء وتحظير على المحبوب من أن يراه محبه، ثم فراق يتعمده المحب بعدًا عن قول الوشاة وخوفًا من أن يكون بقاؤه سببًا إلى منع اللقاء ، ثم فراق يوجبه المحب لبعض ما يدعوه إلى ذلك من آفات الزمان، ثم فراق بسبب الرحيل وتباعد الديار، وأخيرًا الفراق بسبب الموت[٢].

٣- الغدر: وهو من الصفات الذميمة المكروهة، ومن قبيح الغدر أن يكون للمحب سفيرًا إلى محبوبه يستريح إليه بأسراره فيسعى حتى يقلبه إلى نفسه ويستأثر به من دونه[٣].

٤- الضنى: لابد لكل محب صادق المودة ممنوع الوصل – إما لفراق، وإما لهجر، وإما لكتمان واقع لمعنى – من أن يؤول إلى حد السقام، والضنى، والنحول، وربما أعياه ذلك، والأعراض الواقعة من المحبة غير الأعراض الواقعة من الأمراض والعلل، ويستطيع الطبيب الحاذق، والمتفرس الناقد أن يميزها عن غيرها، وهذا الضنى إنما يتولد عن إدمان الفكر، وغلبته، وترك التداوي، وربما في هذه الحالة خرج الأمر عن حد الحُب إلى حد الوله والجنون[٤].

---

(١) المصدر السابق، ص ١٩١ - ٢٠١ .
(٢) المصدر السابق، ص ٢١٥ - ٢٢٣ . أيضًا يوسف الشارونيّ: دراسات في الحُب، ص ٦٨ .
(٣) ابن حزم: رسالة «طوق الحمامة»، ص ٢١٣ - ٢١٤ .
(٤) المصدر السابق، ص ٢٤٠ - ٢٤٢ .

٥- السلو: قد يحدث لأسباب، منها: الغدر، أو المنافرة ، أو طول الهجر، أو الملل، أو جفاء يكون من المحبوب، والسلو ينقسم إلى قسمين : الأول- السلو الطبيعي، أو النسيان، يخلو به القلب ويفرغ به البال ويكون الإنسان كأنه لم يحب قط، والثاني- سلو تطبعيّ؛ إذ تقهر فيه النفس، وهو المسمى بالتصبر، فترى المرء يظهر التجلد، وفي قلبه الحُب، ولكنه يرى بعض الشر أهون من بعض ، أو يحاسب نفسه بحجة لا تصرف، ولا تكسر حتى يصير عادة وطبعًا له[١].

ويرى ابن حزم أن الحُب داء عياء، وفيه الدواء منه على قدر المعاناة، وسقام مستلذ، وعلة مشتهاة لا يود سليمها البرء، ولا يتمنى عليلها الإفاقة، يزين للمرء ما كان يأنف منه، ويسهل عليه ما كان يصعب عنده، حتى يحيل الطبائع المركبة والجبلة المخلوقة[٢].

لذلك ينبه ابن حزم على أن الحُب يجب أن يكون عفيفًا غير ملتبس بالمعاصي، ولا يتحقق ذلك إلا بتغليب جانب العقل على جانب النفس الأمارة بالسوء؛ إذ إن الله تعالى قد ركب في الإنسان طبيعتين متضادتين إحداهما لا تشير إلا إلى خير، ولا تحض إلا على حسن، ولا يتصور فيها إلا كل أمر مرضي، وهي العقل، وقائده العدل، والثانية ضد لها لا تشير إلا إلى الشهوات ، وهي النفس، قال تعالى: ﴿إِنّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾[٣]، وكنى بالقلب عن العقل فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيد﴾[٤]، وهاتان الطبيعتان تتقابلان أبدًا وتتنازعان دأبًا، فإذا غلب العقل النفس ارتدع الإنسان، وقمع شهواته ، واستضاء بنور الله، واتبع العدل، وإذا غلبت النفس العقل عميت البصيرة، ولم يتضح الفرق بين الحسن والقبيح، وعظم الالتباس، وغلبه هواه فتردى[٥].

و إذا تردى الإنسان العاشق وقع في الزنا، ولا شيء أقبح عند الله تعالى من الزنا، وهو من الكبائر، وقد وضع الله حدًا له فقال: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ

(١) المصدر السابق، ص ٢٤٥- ٢٥٣ .
(٢) المصدر السابق، ص ١٠٠- ١٠١ .
(٣) سورة يوسف، آية ٥٣.
(٤) سورة ق، آية ٣٧.
(٥) ابن حزم: رسالة «طوق الحمامة» ، ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .

بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ﴾ [١]، كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» [٢]؛ والسبب في ذلك أن في الزنا من إباحة الحريم، وإفساد النسل، والتفريق بين الأزواج الذي عظم الله أمره، ما لا يخفى على ذي عقل، أو من له أقل أخلاق[٣].

لذلك فإن أفضل ما يأتيه الإنسان في حبه التعفف، وترك المعصية والفاحشة، ومخالفة أمر الله عز وجل، وتذكير نفسه الأمارة بالسوء بعقاب الله يوم الحساب ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [٤]، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾[٥]، ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ، وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى ، فَأَمَّا مَنْ طَغَى ، وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ، وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [٦].

ونخلص من ذلك إلى أن المفهوم الفلسفيّ والأخلاقيّ للحُب عند ابن حزم يدل على عمق فهمه لأغوار النفس البشرية الذي يتضح عن طرق تحليله النفسيّ الدقيق لأسباب الحُب، وأعراضه، وآفاته، كما يتضح عن طريق ذلك العرض الفلسفيّ العميق لصلات المحبين بالمحبوبين مع ما يكتنفها من علاقات متشابكة متعارضة متداخله؛ مما يجعل مفهومه الفلسفيّ والأخلاقيّ للحُب حافلًا بالملاحظات النفسية الدقيقة، والخبرات الحية المَعِيْشَة، والنماذج البشرية المتنوعة[٧].

لذلك أرى أن المفهوم الفلسفيّ والأخلاقيّ للحُب لدى ابن حزم الذي قدمه في رسالة «طوق الحمامة» يعد من أفضل الدراسات الفلسفية التي تناولت الحُب بالشرح والتحليل، والتي توضح أبعاد النفس الإنسانية، الأمر الذي يكشف قدرته على سبر طبائع البشر وأغوارهم، وأحوالهم في الحُب، وفي الوقت ذاته نجده قد التزم بظاهريته المعهودة في بيانه قبح المعصية، وفضل التعفف في الحُب.

---

(١) سورة النور، آية ٢.
(٢) رواه البخاريّ في صحيحة ، كتاب الحدود، باب الزنا وشرب الخمر، حديث رقم ٦٧٧٢ .
(٣) ابن حزم: رسالة «طوق الحمامة» ص ٢٩١ .
(٤) سورة الشعراء ، آية ٨٨- ٨٩.
(٥) سورة آل عمران ، آية ٣٠.
(٦) سورة النازعات ، آية ٣٥- ٤١.
(٧) زكريا إبراهيم : مشكلة الحُب ، ص ٢٨٠ . أيضًا: محمد أبو زهرة: ابن حزم الأندلسيّ، ص ١٦٨- ١٦٩

ثانيا - المفهوم الفلسفيّ والأخلاقيّ للحُب عند ابن الجوزيّ

يتضح المفهوم الفلسفيّ والأخلاقيّ للحُب عند ابن الجوزيّ من آرائه في ماهية العشق وحقيقته، ومراتبه، وأسبابه، وحكمه، وأدويته، وهو يفرق بين الحُب و العشق .

١- ماهية العشق وحقيقته:

يقول أبو الفرج بن الجوزيّ: "اختلف الناس في ماهية العشق وحقيقته، وأكثرهم سموه باسم سببه، أو باسم ما يؤول إليه... فهو عند أفلاطون: حركة النفس الفارغة بغير فكرة، ... والعشق عند أرسطو هو عمى الحس عن إدراك عيوب المحبوب،... وقال عنه فيثاغورس: العشق طمع يتولد في القلب، ويتحرك وينمى، ثم يتربى، ويجتمع إليه مواد من الحرص، فكلما قوى ازداد صاحبه في الاهتياج واللجاج، والتمادي في الطمع، والفكر في الأماني، والحرص على الطلب، حتى يؤدي به ذلك إلى الغم المطلق،... وقد ذهب بعضهم إلى أنه مرضى وسواسي شبيه بالماليخوليا"[١].

والذي يذهب إليه ابن الجوزيّ هو أن العشق شدة ميل النفس إلى صورة تلائم طبعها، فإذا قوي فكرها فيها تصورت حصولها، وتمنت ذلك، فيتجدد من شدة الفكر مرض[٢].

٢- مراتب العشق:

يرى ابن الجوزيّ أن أول ما يحدث للإنسان هو الاستحسان، وهذا الاستحسان يجلب إرادة القرب منه، ثم المودة، وهو أن يود أن لو ملكه، ثم يقوى الود فيصير محبة، ثم يصير خُلة، ثم يصير هوى، فيهوى بصاحبه في محارب المحبوب من غير تمالك، ثم يصير عشقًا، ثم يصير تيمًا، وهي حالة يصير بها المعشوق مالكًا للعاشق، ولا يوجد في قلبه سواه، ثم يزيد التتيم فيصير وَلَهًا، والوله هو الخروج عن حد الترتيب، والتعطل عن أحوال التمييز[٣].

وقال بعض العلماء: أول مراتب العشق الميل إلى المحبوب، ثم يستحكم الهوى فيصير مودة، ثم تزيد بالمؤانسة، وتدرس بالجفاء والأذى، ثم الخُلة، ثم الصبابة وهي رقة الشوق يولدها الأُلفة ويبعثها الإشفاق، ويهيجها الذِكْر، ثم يصير عشقًا، وهو أعلى ضرب[٤].

---

(١) ابن الجوزيّ: ذم الهوى، تحقيق خالد عبد اللطيف، دار الكتاب العربيّ، ط ١، بيروت، ١٩٩٨م، ص ٢٨١- ٢٨٢ .

(٢) المصدر السابق، ص ٢٨٤ ، أيضًا، ابن الجوزيّ: الطب الروحانيّ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الطباعة المحمدية، القاهرة من دون تاريخ، ص ٩٤ .

(٣) ابن الجوزيّ: ذم الهوى، ص ٢٨٤ .

(٤) المصدر السابق، ص ٢٨٤ .

وقال بعض الحكماء: أول الحُب العلاقة، وهو شيء يحدثه النظر أو السمع فيخطر بالبال، ويعرض للفكر، ويرتاح له القلب، ثم ينمى بالطبع، واللجاج، وإدمان الذِكْر، ثم يقوى فيصير حُبًا، ثم يصير هوى، ثم خُلة ، ثم عشقًا، ثم وَلَهًا، فيسمى صاحبه، هائمًا وحيرانًا، ثم يصير تتيمًا، وهو أرفع منازل الحب؛ لأن التتيم يعني التعبد، والوجد ألم الحب، والهيمان الذهاب في طلب غرض لا غاية له، والكَلَف والعشق هو اللهج بطلب الغرض[١].

ويفرق ابن الجوزيّ بين المحبة والعشق؛ إذ إن المحبة جنس، والعشق نوع؛ فالرجل يحب أباه وابنه، ولا يبعثه ذلك على تلف نفسه، بخلاف العاشق، وكل عشق يسمى حُبًا، وليس كل حُب يسمى عشقًا؛ لأن العشق اسم لما فضل عن المحبة، كما أن السرف اسم لما جاوز الجود، والجبن اسم لما فضل عن شدة الاحتراس، والهوج اسم لما فضل عن الشجاعة[٢].

٣- أسباب الحُب والعشق

يبدأ ابن الجوزيّ حديثه عن أسباب الحُب، والعشق، بالكلام في النفس الإنسانية؛ إذ يقسم النفس الإنسانية إلى ثلاث نفوس وهي: نفس ناطقة، ومحبتها منصرفة إلى المعارف واكتساب الفضائل ، ونفس حيوانية عصبية، ومحبتها منصرفة نحو القهر والغلبة والرياسة، ونفس شهوانية، ومحبتها منصرفة إلى المأكل والمشرب والمنكح[٣].

وأرى أن ذلك التقسيم الثلاثي للنفس لدى ابن الجوزيّ، هو التقسيم نفسه الذي قال به أفلاطون؛ إذ إن النفس الإنسانية عند أفلاطون حصيلة ثلاث قوى: العقل الذي يميل دائمًا إلى الخير، وتقابله الشهوة التي تسعى دائمًا إلى إرضاء الحاجات المادية، والقوة الوسطية التي قد تنحاز إلى أحد الطرفين هي الحماسة أو الغضب، وقد ذكر أفلاطون هذه القسمة الثلاثية للنفس في محاورة "الجمهورية"، كما ذكرها أيضًا في محاورة " فايدروس"[٤].

ويرى ابن الجوزيّ أن العشق يقع للنفس الشهوانية، وسبب العشق هو مصادفة النفس ما يلائم طبعها، فتستحسنه ، وتميل إليه، وأكثر أسباب هذه المصادفة هو النظر، أو سماع الغزل

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٨٥ .
(٢) المصدر السابق، ص ٢٨٦ .
(٣) المصدر السابق، ص ٢٨٧ .
(٤) أمير حلمي مطر: الفلسفة اليونانية تاريخها ومشكلاتها، دار قباء، القاهرة، ١٩٩٨م، ص ١٩٣ .

والغناء، فأما النظر فلا يكون باللمح بل بالتثبت فيه، ومعاودته، فإذا غاب المحبوب عن العين طلبته النفس، ورامت القرب منه، ثم تمنت الاستمتاع بأنسه، فيصير فكرها فيه، وتصويرها إياه في الغيبة حاضرًا، وشغلها كله به، فيتجدد من ذلك أمراض لانصراف الفكر إلى ذلك المعنى، وكلما قويت الشهوة البدنية قوي الفكر في ذلك، أما سماع الغزل والغناء، فإن ذلك يصور في النفوس نقوش صور، فتتخمر خميرة صورة موصوفة ، ثم يصادف النظر مستحسنًا، فتتعلق النفس بما كانت تطلبه حالة الوصف[١].

ويرى ابن الجوزيّ كذلك أن بعض الحكماء قد ذهبوا إلى أنه لا يقع العشق إلا لمجانس، أي لمشابه في الطباع والصفات، وأنه يضعف ويقوى على قدر التشاكل، واستدلوا على ذلك بالحديث الذي روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم القائل فيه : «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»[٢]؛ إذ إن الأرواح كانت موجودة قبل الأجسام – من وجهة نظر ابن الجوزيّ – فمال الجنس إلى الجنس، فلما افترقت في الأجساد بقي في كل نفس حُب ما كان مقاربًا لها، فإذا شاهدت النفس من نفس نوع موافقة مالت إليها؛ إذ تظن أنها هي التي كانت قرينتها ، فإن كان التشاكل في المعاني كانت صداقة ومودة، وإن كان في معنى يتعلق بالصورة كان عشقًا، وإنما يوجد الملل والإعراض في بعض الناس؛ لأن التجربة أبانت ارتفاع المجانسة والمناسبة[٣].

ولكن إذا كان سبب العشق نوع موافقة بين الشخصين في الطباع، فكيف يحب أحدهما صاحبه والآخر لا يحبه؟

يرى ابن الجوزيّ أن السبب في ذلك يرجع إلى أنه يتفق في طبع المعشوق ما يوافق طبع العاشق، ولا يتفق في طبع العاشق ما يلائم طبع المعشوق، وإذا كان سبب العشق اتفاقًا في الطباع بطل قول من قال: إن العشق لا يكون إلا للأشياء المستحسنة، وإنما يكون لنوع مناسبة وملاءمة ، ثم قد يكون الشيء حسنًا عند شخص، غير حسن عند آخر[٤].

---

(١) ابن الجوزيّ : ذم الهوى ، ص ٢٨٧ .
(٢) ابن الجوزيّ: ذم الهوى، ص ٢٨٧ .
(٣) رواه البخاريّ في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب الأرواح، حديث رقم ٣٣٣٦، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب الأرواح جنود مجندة، حديث رقم ٢٦٣٨ .
(٤) المصدر السابق، ص ٢٨٩ .

وأرى أن هذا التعليل الذي قدمه ابن الجوزيّ أكثر واقعية، وأقرب إلى الفهم العام من التعليل الذي اضطر ابن حزم أن يلجأ إليه حتى يستمر منطقيًّا مع اعتقاده بفكرة النفوس المقسومة الذي قال فيه: إن الذي لا يحب من يحبه تكون نفسه محاطة ببعض الحجب المحيطة بها من الطبائع المادية الأرضية فلا تحس بالجزء الذي كان متصلاً بها قبل حلولها، وهذا هو الفرق بين المحب والمحبوب، فنفس المحب لا يحجبها شيء من هذه الطبائع الأرضية، وهي تعلم الجزء الذي كان متصلًا بها فتطلبه وتقصده[1].

ولكن أيكون العشق ممدوحًا أم مذمومًا؟

اختلف الناس في العشق من حيث المدح و الذم ، فقال قوم: هو ممدوح؛ لأنه لا يكون إلا من لطافة الطبع، ولا يقع عند جامد الطبع حبيسه، ومن لم يجد منه شيئًا فذلك من غلظ طبعه، إذ إن العشق يجلو العقل، ويصفي الأذهان ما لم يفرط، فإذا أفرط عاد سمًا قاتلًا، وقال آخرون: بل هو مذموم؛ لأنه يستأسر العاشق، ويجعله في مقام المستبعد[2].

ويرى ابن الجوزيّ أن المحبة، والود، والميل إلى الأشياء المستحسنة والملائمة لا يذم ، ولا يعدم ذلك إلا من غلظ قلبه، أما العشق الذي يزيد على حد الميل والمحبة فيملك العقل، ويصرف صاحبه على غير مقتضى الحكمة، فذلك مذموم، ويتحاشى من مثله الحكماء؛ إذ لا فائدة في العشق للنفس الناطقة التي يكتمل وجودها بالعلم والمعرفة ، وإنما هو أثر غلبة النفس الشهوانية؛ لأنها لما قويت أحبت ما يليق بها؛ إذ إن غايتها الحصول على اللذة[3].

واللذة وإن كانت حسنة فإنها ليست مطلوبة في ذاتها؛ وإنما هي لدفع حادث مؤذٍ ليعود الإنسان إلى حالته قبل ذلك الحادث؛ إذ لا يمكن أن تقع لذة حسنة إلا بمقدار التأذي بالخروج عن الطبيعة، كما أنه بمقدار الجوع والعطش يكون التلذذ بالطعام والشراب، فإذا عاد الجائع والعطشان إلى حالته الأولى كان إكراهه على تناولهما أبلغ شيء في أذاه، ولما كان الحال كذلك، فهذا العيب لازم في العشق، بل هو به أجدر؛ إذ إن إعمال البصر في تكرار النظر حقن في نفس العاشق بطلب الالتذاذ، فكلما نال لذة بنظرة دفع بعض الأذى الذي جلبه لنفسه، إلا أنه يجلب

(١) ابن حزم: رسالة «طوق الحمامة»، ص ٩٦. أيضا : يوسف الشارونيّ: دراسات في الحُب، ص ٣٠ .
(٢) ابن الجوزيّ: ذم الهوى، ص ٢٩٥ .
(٣) المصدر السابق، ص ٢٩٥ - ٢٩٧ .

بتلك النظرة من الشر أضعاف ما دفع، من جهة أن تكرار النظر يقوي القلق إلى الحبيب، ولا شفاء لذلك إلا أن ينتهي إلى غايته المطلوبة من المتعة الدائمة التي تمتد إلى بداية الملل، وبعض ذلك قد يوجب خزي الدنيا والآخرة[1].

أما في الآخرة فإن العشق يشغل القلب عن الفكر فيما خُلِق له، من معرفة الله تعالى، والخوف منه، والقرب إليه، ثم بقدر ما ينال من موافقة غرضه المحرم يكون خسران آخرته، وتعرض لعقوبة خالقه، فكلما قرب من هواه بعد من مولاه، ولا يكاد العشق يقع في الحلال المقدور عليه، فإن وقع فسوف يزول سريعًا، أما ضرر العشق في الدنيا، فإنه يورث الهم الدائم، والفكر اللازم، والوسواس، والأرق، وقلة المطعم، وكثرة السهر، ثم يتسلط على الجوارح، فتنشأ الصفرة في البدن، والرعدة في الأطراف، واللجلجة في اللسان، والنحول في الجسد، فالرأي عاطل، والقلب غائب عن تدبير مصلحته، والحسرات تتابع، والأنفاس لا تمتد، والأحشاء تضطرم، فإذا غشي على القلب إغشاء تامًا أخرجت العاشق إلى الجنون، وما أقربه حينئذ من التلف، هذا وكم يجنى من جناية على العرض، ووهن الجاه بين الخلق، وربما أوقع صاحبه في عقوبات البدن، وإقامة الحد[2].

ولما كان الحال كذلك وجب على كل عاقل ذم الهوى، وعدم الاقتراب منه؛ حفاظًا على دينه ودنياه؛ إذ إنه داء يجب البعد عنه والشفاء منه.

٤- الأدوية اللازمة لعلاج العشق

عَدَّ ابن الجوزيّ العشق مرضًا يجب البرء منه، وهو في ذلك يتفق مع وجهة نظر بعض فلاسفة الإسلام، ومنهم ابن سيناء (ت٤٢٨هـ) الذي يرى أن العشق مرض وسواس شبيه بالماليخوليا، يكون الإنسان قد جلبه إلى نفسه بتسليط فكره على استحسان بعض الصور، والشمائل التي له، وعلامته غؤور العين ويبسها، وعدم الدمع إلا عند البكاء، وحركة متصلة للجفن ضحاكة، كأنه ينظر إلى شيء لذيذ، أو يسمع خبرًا سارًا، أو يمزح، ويكون نفسه كثير الانقطاع والاسترداد، فيكون كثير الصعداء، يتغير حاله إلى فرح وضحك، أو إلى غم وبكاء عند سماع

(١) المصدر السابق، ص ٢٩٩ - ٣٠٠ .
(٢) المصدر السابق، ص ٣٠٠- ٣٠١ .

الغزل، ولا سيما عند ذكر الهجر، وتكون جميع أعضائه ذابلة ما عدا العين فإنها تكون مع غؤور مقلتها كبيرة الجفن، من كثرة السهر ، ولا يكون لشمائله نظام، ويكون نبضه نبضًا مختلفًا بلا أي نظام، كنبض أصحاب الهموم، وربما أدى به الحال إلى الجنون[١].

ويرى ابن الجوزيّ أن أمراض العشق تختلف؛ وَمِنْ ثَمَّ يختلف علاجها؛ إذ ليس علاج من عنده بداية المرض كعلاج من انتهى به المرض نهايته، وإنما يعالج من هذا المرض – العشق – من لم يرتق إلى غايته، فإنه إذا بلغ الغاية أحدث الجنون والذهول، وتلك حالة لا تقبل العلاج[٢].

فإذا كان العشق في بدايته ، وقد حدث من إدمان النظر، فيجب صرف النظر في الحال، والقطع الجازم على غض البصر عنه، وهجران الطمع فيه، وتوطين النفس على اليأس منه[٣]، أما إذا تمكن العشق من القلب فيكون علاج العشق ببعض الأدوية ، وهي أدوية بعضها دينيّ، وبعضها اجتماعيّ، وبعضها طبيّ، وبعضها أخلاقيّ، وبعضها عقليّ[٤].

أ- **العلاج الدينيّ: يتحقق بالخشية من الله، وتذكر الموت، ويوم الحساب، والعقاب بالنار على المخالفة، واللجوء إلى الله سبحانه وتعالى، وليكثر من الدعاء؛ إذ إنه مضطر، والله يجيب المضطر إذا دعاه[٥].**

ب- **العلاج الاجتماعيّ: يحصل بالزواج من المحبوب إذا كان ذلك ممكنا وجائزًا شرعًا ؛ إذ إن الزواج يزيل العشق[٦].**

ج- **العلاج الطبيّ: إذ إن بدن العاشق إذا نحف أسرعت فيه الحرارة إلهابًا وإحراقًا، فينبغي له أن يستعمل الترطيبات، مع دخول الحمام من غير طول مكث فيه، والنوم الطويل، والتغذي بالأغذية الرطبة[٧].**

---

(١) ابن سينا: القانون في الطب، ج ٢، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت، ١٩٩٩م، ص ١١٢ .
(٢) ابن الجوزيّ: ذم الهوى، ص ٤٩٨ .
(٣) المصدر السابق، ص ٥٠١ .
(٤) يوسف الشارونيّ: الحُب والصداقة في التراث العربيّ، ص ٣٩ .
(٥) ابن الجوزيّ: ذم الهوى، ص ٥٣٢ .
(٦) المصدر السابق، ص ٥١٠ .
(٧) المصدر السابق، ص ٥٣٣ .

د- العلاج النفسيّ: يتمثل في النظر إلى الماء الصافي في الرياض النضرة، وسماع النوادر المضحكة، والسفر؛ إذ إن بالسفر يتحقق البعد عن المحبوب، وكل بعيد عن البدن يؤثر بعده في القلب، ثم إن مرور الأيام يهون الأمر، كذلك كل ما يشغل القلب من المعاش والصناعة؛ إذ إنه يسلي؛ لأن العشق شغل الفارغ فهو يمثل صورة المعشوق في خلوته لشوقه إليها فإذا انشغل القلب حصل التناسي[١].

هـ- العلاج الأخلاقيّ: يتمثل في عيادة المرضى، وتشييع الجنائز، وزيارة القبور، والتفكير في الموت وما بعده؛ إذ إن ذلك يطفئ نار الهوى، كذلك مواصلة مجالس التذكير، ومجالسة الزهاد، وسماع أخبار الصالحين، والمواعظ؛ إذ إن ذلك يخرج الإنسان عن غلبة الشهوة إلى حيز الحزن والفكر، وذلك يضاد العشق، كذلك زجر الهمة الأبية عن مواقف الذل، واكتساب الرذائل، وحرمان الفضائل التي يقع فيها العاشق إما لتجني المحبوب عليه، وإما لغدرة[٢].

و- العلاج العقليّ: يتمثل في التفكر في عيوب المحبوب؛ إذ إن العاشق يرى معشوقه في حال الكمال، ولا يصور له الهوى عيبًا؛ لأن الحقائق لا تنكشف إلا مع الاعتدال، وسلطان الهوى حاكم جائر يغطي المعايب، فيرى العاشق القبيح من معشوقه حسنًا[٣].

وعلى كل حال فإن العلاج الكلي في جميع أمراض العشق هو الإرادة القوية والعزم الجازم على هجر المحبوب، فإن حصلت هذه الإرادة حسنت المعالجة، والعلاج حينئذ يقع للظاهر والباطن[٤].

وفي النهاية أرى أن المفهوم الفلسفيّ والأخلاقيّ للحُب عند ابن الجوزيّ يقترب في بعض الأحيان من نظريات علم النفس المعاصر، إلا أنها تظل مع ذلك مجرد ملاحظات تقصر عن الوصول إلى مجموعة القوانين التي تقدم تفسيرًا كاملاً لظاهرة الحُب، ومع ذلك تعد المحاولات التي قام بها ابن الجوزيّ لتفسير الحُب، ولا سيما من الناحية الفلسفية والنفسية رائدة في هذا المجال.

---

(١) المصدر السابق، ص ٥٣٣ .
(٢) المصدر السابق، ص ٥٣٧ .
(٣) المصدر السابق، ص ٥٤٦ .
(٤) المصدر السابق، ص ٥٣٢ .

ثالثا- المفهوم الفلسفيّ والأخلاقيّ للحُب عند ابن القيم

عرض ابن القيم مفهومه الفلسفيّ والأخلاقيّ للحّب في عدد من الأفكار التي أودعها كتبه المختلفة، ولا سيما كتاب «روضة المحبين، ونزهة المشتاقين»، الذي قال عنه: إنه يصلح لسائر طبقات الناس؛ إذ إنه عون على الدين، وعلى الدنيا، ومرقاة للذة العاجلة، ولذة العقبي، وفيه من ذكر أقسام المحبة، وأحكامها ،ومتعلقاتها، وصحيحها، وفاسدها، وآفاتها، وغوائلها، وأسبابها وموانعها.

وقد فرق ابن القيم بين المحبة والعشق؛ إذ إن المحبة لديه جنس، والعشق نوع منها، فكل عشق يسمى حبًا، وليس كل حُب يسمى عشقًا[1]، وهو الأمر ذاته الذي فعله ابن الجوزيّ قبل ذلك؛ ولهذا نجده يقسم المحبة إلى درجات ،هي[2]:

١- العلاقة: وسميت علاقة لتعلق القلب بالمحبوب.

٢- الإرادة: وهي ميل القلب إلى المحبوب وطلبه له.

٣- الصبابة: وسميت بذلك لانصباب القلب إلى المحبوب.

٤- الغرام: وهو لزوم الحُب للقلب لزومًا لا ينفك.

٥- الوداد: وهو صفو المحبة، وخالصها ولبها.

٦- الشغف: أي وصول الحُب إلى شغاف القلب وهو غشاء القلب.

٧- العشق: وهو إفراط المحبة.

٨- الشوق : وهو سفر القلب إلى المحبوب.

٩- التتيم: وهو تعبد المحب لمحبوبه.

١٠-التعبد: وهو فوق التتيم؛ إذ إن العبد هو الذي قد ملك المحبوب رقه فلم يبق له شيء من نفسه ألبته، بل كله عبد لمحبوبه ظاهرًا وباطنًا.

١١-الخُلة: وهي المحبة التي تخللت روح المحب وقلبه، حتى لم يبق فيه موضع لغير المحبوب.

---

(١) ابن القيم: روضة المحبين ونزهة المشتاقين، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط ٢، بيروت، ٢٠٠٣م، ص ١٠٠

(٢) ابن القيم: الداء والدواء، دار عالم الفوائد، مطبوعات مجمع الفقه الإسلاميّ، جدة، من دون تاريخ، ص ٤٢٦ - ٤٣٨ . أيضًا: ابن القيم: مدارج السالكين، تحقيق محمد المعتصم بالله البغداديّ، ج ٣، دار الكتاب العربيّ، ط ٧، بيروت، ٢٠٠٣ م، ص ٢٩- ٣٣ .

فرق ابن القيم إذًا بين المحبة والعشق، بل إن المحبة لديه ممدوحة، بينما العشق مذموم، وهو داء يحتاج إلى دواء؛ لذلك سوف نعرض أولاً للمحبة عند ابن القيم، ثم العشق .

١- المحبة عند ابن القيم

أ– معنى المحبة وحدها: المحبة أصلها الصفاء؛ لأن العرب تقول لصفاء بياض الأسنان ونضارتها حبب الأسنان، وقيل: إنها مأخوذة من الحباب، وهو ما يعلو الماء عند المطر الشديد، وعلى هذا تكون المحبة هي غليان القلب وثورانه عند الاهتياج إلى لقاء المحبوب، وقيل: مشتقة من اللزوم والثبات، ومنه أحب البعير إذا برك فلم يقم، فكان المحب قد لزم قلبه محبوبه فلم يرم انتقالًا، وقيل: بل هي مأخوذة من محبة القلب وهي سويداؤه(١).

أما حد المحبة فقد قيل: إنها الميل الدائم، بالقلب الهائم، وقيل: إيثار المحبوب على جميع المصحوب، وقيل: موافقة الحبيب في المشهد والمغيب، وقيل : اتحاد مراد المحب ومراد المحبوب، وقيل: إيثار مراد المحبوب على مراد المحب(٢).

ويرى ابن القيم أن العالم إنما وجد بالمحبة ، سواء أكان العالم العلويّ، أم العالم السفليّ، ولأجلها، كما أن حركات الأفلاك، والشمس، والقمر، والنجوم، وحركات الملائكة، والحيوانات، وحركة كل متحرك، إنما وجدت بسبب المحبة؛ فهي العلة الفاعلة والغائية، بل هي التي بها ولأجلها وجد العالم؛ إذ إن حركات العالم العلويّ والسفليّ، وما فيهما موافقة للأمر الصادر عن الله سبحانه وتعالى والإرادة الإلهية ، والذي لا يكون إلا عن رضا ومحبة سواء أكان الأمر الدينيّ، أم كان الأمر الكونيّ، الذي قدره وقضاه، وهو سبحانه لم يقدره سُدى، ولا قضاه عبثًا، بل لما فيه من الحكمة والغايات الحميدة، وما يترتب عليه من أمور يحب غاياتها، ويحبها الله تعالى(٣).

هكذا يجعل ابن القيم من المحبة مبدأ عامًا لوجود الكون، وهي فكرة لها ما يشبهها لدى فلاسفة اليونان، ولاسيما "أنباذوقليس" الذي يرى أن العالم يتكون من العناصر الأربعة التي تجتمع

---

(١) ابن القيم: روضة المحبين، ص ١٥ .
(٢) المصدر السابق، ص ١٦. أيضًا: ابن القيم: مدراج السالكين، ج ٣، ص ١١- ١٣ .
(٣) ابن القيم : روضة المحبين، ص ٤١-٤٦ . أيضًا: ابن القيم: الداء والدواء، ص ٤٦٦ .

بفضل قوة المحبة، وتفترق بفضل قوة الكراهية، وهما يتخللان جميع الأشياء ويحركانها[١]، وربما كان ابن القيم متأثرًا فيها بآراء بعض الصوفية المسلمين، ولاسيما ابن عربي (ت ٦٣٨هـ)، الذي يرى أن العالم محدث، والله كان ولا شيء معه ، فكان الحُب أصل سبب وجود العالم[٢].

ب- الأسباب الداعية إلى المحبة:

يقرر ابن القيم أن هناك ثلاثة أسباب داعية إلى المحبة:

أولها– ما قام بالمحبوب من الصفات التي تدعو إلى محبته.

ثانيها – ما قام بالمحب من الشعور بهذه الصفات.

ثالثها – الموافقة التي بين المحب والمحبوب، وهي الرابطة التي بينهما.

فمتى قويت هذه الدواعي الثلاثة وكملت قويت المحبة واستحكمت، ويكون نقصان المحبة وضعفها بحسب ضعف هذه الدواعي الثلاثة أو نقصها[٣].

ومتى كان المحبوب في غاية الجمال، وشعور المحب بجماله أتم شعور، والمناسبة التي بين الروحين قوية، كان الحب قويًّا ودائمًا، وقد يكون الجمال في نفسه ناقصًا لكن هو في عين المحب كامل، فتكون قوة محبته بحسب ذلك الجمال عنده، فلا يرى المحب أحدًا أحسن من محبوبه، وقد يكون الجمال موفرًا، لكنه ناقص الشعور به، فتضعف محبته لذلك، فلو كشف له عن حقيقته لأسر قلبه، وإذا وجد ذلك كله وانتفت المناسبة والعلاقة التي بينهما لم تستحكم المحبة، وربما لم تقع أبدًا؛ إذ إن التناسب الذي بين الأرواح من أقوى أسباب المحبة[٤].

وهذا التناسب نوعان: أصليّ، وعارض ، أما التناسب الأصليّ فمرده إلى اتفاق في الأخلاق، وتشاكل في الأرواح، وشوق كل نفس إلى مشاكلها؛ إذ إن الشبيه يدرك الشبيه ، وينجذب إليه بالطبع، فتكون الروحان متشاكلتين في أصل الخلقة، فتنجذب كل منهما إلى الأخرى

---

(١) أميرة حلمي مطر: الفلسفة اليونانية، ص ١٠٢ . أيضًا: يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية، هنداويّ، القاهرة ٢٠١٢م، ٥٢ .

(٢) محي الدين بن عربيّ: الحُب والمحبة الإلهية، جمع وتحقيق محمود الغراب، دار الإيمان، دمشق، ١٩٩٢م، ص ١٣.

(٣) ابن القيم: روضة المحبين، ص ٤٩ .

(٤) المصدر السابق، ص ٤٩ - ٥٠ .

بالطبع ما يجعل المحبة ثابتة متمكنة ودائمة؛ فمتى كانت المحبة بالمشاكلة، والمناسبة ثبتت وتمكنت، ولم يزلها إلا مانع أقوى من السبب، وإذا لم تكن بالمشاكلة كان التناسب عارضًا؛ إذ إنها محبة لغرض من الأغراض تزول عند انقضائه وتضمحل، فمن أحبك لأمر ولى عند انقضائه، فداعي المحبة، وباعثها إن كان غرضًا للمحب لم يكن لمحبته بقاء، وإن كان أمرًا قائمًا بالمحبوب سريع الزوال والانتقال زالت محبته بزواله[1].

والإنسان إذا تأمل الوجود لا يكاد يجد اثنين يتحابان إلا وبينهما مشاكلة أو اتفاق في فعل أو حال أو مقصد، فإذا تباينت المقاصد والأوصاف والأفعال والطرائق، لم يكن هناك إلا التنافر والبعد بين القلوب[2]؛ لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»[3].

ولكن ذلك يقتضي أنه إذا أحب شخص شخصًا أن يكون الآخر يحبه فيشتركان في المحبة، والواقع يشهد بخلافه، فكم من محب غير محبوب، وربما كان مكروهًا.

يرى ابن القيم أن ذلك يرجع إلى نوع المحبة؛ إذ إنها نوعان: محبة عرضية غرضية، فهذه لا يجب الاشتراك فيها؛ بل يقارنها مقت المحبوب وبغضة للمحب كثيرًا، إلا إذا كان له معه غرض نظير غرضه، فإنه يحبه لغرضه منه، كما يكون بين الرجل والمرأة اللذين لكل منهما غرض مع صاحبه، والنوع الثاني – محبة روحانية سببها المشاكلة والاتفاق بين الروحين، فهذه لا تكون إلا من الجانبين[4].

وأرى أن ابن القيم يخالف ابن حزم في هذه المسألة؛ إذ إن ابن حزم يرى أن السبب في ذلك يرجع إلى أن نفس الذي لا يحب من يحبه تكون متلبسة ببعض الأعراض الساترة، والحجب المحيطة بها من الطبائع الأرضية، فلم تحس بالجزء الذي كان متصلاً بها قبل حلولها حيث هي، ولو تخلصت لاستويا في الاتصال والمحبة، بينما نفس المحب متخلصة عالمة بمكان ما كان

(١) المصدر السابق، ص ٥٠ - ٥٢ .
(٢) المصدر السابق، ص ٥٤ .
(٣) رواه البخاريّ في صحيحه كتاب أحاديث الأنبياء ، باب الأرواح، حديث رقم ٣٣٣٦.
(٤) ابن القيم : روضة المحبين ، ص ٥٥ - ٥٦ أيضًا: ابن القيم: زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط ، ج٤، مؤسسة الرسالة، ط ٣، بيروت، ١٩٩٨م، ص ٢٤٩ .

يشاركها في المجاورة طالبة له، قاصدة إليه، باحثة عنه مشتهية لملاقاته، جاذبة له لو أمكنها كالمغناطيس يجذب الحديد[١].

ويرجع السبب في ذلك الاختلاف إلى أن ابن القيم يرى أن هذا الرد الذي قال به ابن حزم مبنيّ على الأصل الذي يفترض أن الأرواح كانت موجودة قبل خلق الأجساد، وأنها كانت متعارفة متجاورة هناك، تتلاقى ، وتتعارف، وهذا خطأ – من وجهة نظر ابن القيم – بل الصحيح لديه أن الأرواح مخلوقة مع الأجساد[٢].

وأرى كذلك أن رأي ابن القيم يقترب إلى حد ما من رأي ابن الجوزيّ في تلك المسألة؛ إذ إن ابن الجوزيّ أرجع السبب في ذلك إلى أنه يتفق في طبع المعشوق ما يوافق طبع العاشق، ولا يتفق في طبع العاشق ما يوافق طبع المعشوق، ومعنى ذلك أن يكون التجانس عرضيًّا وليس أصليًّا من وجهة نظر ابن القيم – والمحبة أيضًا تكون عرضية لغرض وليست ثابتة دائمة لازمة.

ج- علامات المحبة وشواهدها:

يرى ابن القيم أن النفس الإنسانية تنقسم إلى ثلاثة نفوس، وهي[٣]:

١- نفس سماوية علوية، وتكون محبتها منصرفة إلى المعارف، واكتساب الفضائل، والكمالات الممكنة للإنسان، واجتناب الرذائل، وهي مشغولة بما يقربها من الرفيق الأعلى، وذلك قوتها وغذاؤها، ودواؤها، واشتغالها بغيره هو داؤها.

٢- نفس سبعية غضبية، وتكون محبتها منصرفة إلى القهر، والبغي، والعلو في الأرض، والتكبر، والرئاسة على الناس بالباطل، فلذتها في ذلك وشغفها به.

٣- نفس حيوانية شهوانية، ومحبتها منصرفة إلى المأكل، والمشرب، والمنكح، وربما جمعت الأمرين فانصرفت محبتها إلى العلو في الأرض والفساد فيها.

---

(١) ابن حزم: رسالة «طوق الحمامة» ، ص ٩٦ .
(٢) ابن القيم: روضة المحبين، ص ٥٦، أيضًا: ابن القيم: الروح ، تحقيق محمد أجمل أيوب الإصلاحيّ، دار عالم الفوائد، مجمع الفقه الإسلاميّ، جدة، من دون تاريخ، ص ٤٣١ .
(٣) ابن القيم: روضة المحبين، ص ١٨٥ .

والحُب في هذا العالم دائم بين هذه النفوس الثلاثة؛ فأي نفس منها صادفت ما يلائم طبعها استحسنته، ومالت إليه؛ ولذا نجد أن الملائكة أولياء النوع الأول، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ، نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ، نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [1] ،أما النوع الثاني فأولياؤهم الشياطين، ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2]، أما النوع الثالث فهم أشبه بالحيوانات، ونفوسهم أرضية سفلية لا تبالي بغير شهواتها ولا تريد سواها[3].

وأرى أن ذلك التقسيم الثلاثيّ للنفس الذي قال به ابن القيم، لم يخرج بأي حال من الأحوال عن التقسيم الأفلاطونيّ للنفس؛ إذ إن أفلاطون قد قسم النفس الإنسانية إلى نفس عاقلة، ومحبتها العلم والمعرفة والحكمة ، ونفس غضبية، ومحبتها القوة والغلبة والشجاعة، ونفس حيوانية ومحبتها الشهوة والمأكل والملبس، إلا أن ابن القيم يحاول أن يصبغ هذا التقسيم بالطابع الدينيّ.

ويرى ابن القيم أن علامات المحبة قائمة في كل نوع من هذه الأنواع الثلاثة بحسب محبوبه ومراده، ومن تلك العلامات نعرف من أي هذه الأقسام هو، كما أن الحُب يحيل الأخلاق، و من تلك العلامات[4]:

١- إدمان النظر إلى الشيء، وإقبال العين عليه؛ إذ إن العين باب القلب، وهي المعبرة عن ضمائره، والكاشفة لأسراره.

٢- إغضاؤه عند نظر محبوبه إليه ورميه بطرفه نحو الأرض، وذلك من مهابته له، وحيائه منه، وعظمته في صدره.

٣- كثرة ذكر المحبوب، واللهج بذكره وحديثه؛ إذ إن من أحب شيئًا أكثر من ذكره بقلبه ولسانه.

٤- الانقياد لأمر المحبوب، وإيثاره على مراد المحب، بل يتحد مراد المحب، والمحبوب.

---

(١) سورة فصلت، آية ٣٠ - ٣٢ .
(٢) سورة النحل، آية ٦٣ .
(٣) ابن القيم: روضة المحبين، ص ١٨٥ - ١٨٧ .
(٤) ابن القيم: روضة المحبين، ص ١٨٥ - ٢٠٣.

٥- قلة صبر المحب عن المحبوب ، بل ينصرف صبره إلى الصبر على طاعته، والصبر عن معصيته، والصبر على أحكامه.

٦- الإقبال على حديثه ، وإلقاء سمعه كله إليه، بحيث يفرغ لحديثه سمعه وقلبه، وإن ظهر منه إقبال على غيره فهو إقبال مستعار يستبين فيه التكلف لمن يرمقه.

٧- محبة دار المحبوب، وبيته حتى محبة الموضع الذي حل به، وهذا هو السر الذي لأجله علقت القلوب على محبة الكعبة البيت الحرام.

٨- الإسراع إليه في السير، وحث الركاب نحوه، وطي المنازل في الوصول إليه، والاجتهاد في القرب والدنو منه، وقطع كل قاطع يقطع عنه، وطرح الأشغال الشاغلة عنه.

٩- محبة أحباب المحبوب وجيرانه، وخدمه، وما يتعلق به، حتى حرفته وصناعته ، وآنيته وطعامه وملابسه.

١٠- البهت والروعة التي تحصل عند مواجهة الحبيب، أو عند سماع ذكره، ولاسيما إذا رآه فجأة، أو طلع بغتة.

١١- غيرته لمحبوبه، وعلى محبوبه، فالغيرة له أن يكره ما يكره، ويغار عليه إذا عصى محبوبه، وانتهك حقه وضيع أمره.

١٢- بذل المحب في رضا محبوبه ما يقدر عليه مما كان يتمتع به قبل المحبة، وللمحب في هذا ثلاثة أحوال: أحدها بذله ذلك تكلفًا ومشقة، وهذا في أول الأمر، فإذا قويت المحبة بذله رضًا وطوعًا، فإذا تمكنت المحبة من القلب غاية التمكن، بذله سؤالًا وتضرعًا كأنه يأخذه من المحبوب.

١٣- سروره بما يسر به محبوبه كائنًا ما كان ، وإن كرهته نفسه، فيكون عنده بمنزلة الدواء الكريه، يكرهه طبعًا ويحبه لما فيه من الشفاء.

١٤- حب الوحدة والأنس بالخلوة، والتفرد عن الناس، وكأن المحبة قد ثبتت على ذلك الحال.

١٥- الاتفاق الواقع بين المحب والمحبوب، ولا سيما إذا كانت المحبة محبة مشاكلة، ومناسبة؛ فكثيرًا ما يمرض المحب بمرض محبوبه، ويتحرك بحركته، ويشعر أحدهما بالآخر، ويتكلم المحبوب بكلام فيتكلم المحب به بعينه اتفاقًا.

وأرى أن هذه العلامات لا تخرج في مجملها عن تلك العلامات التي حددها كل من ابن حزم، وابن الجوزيّ للحُب قبل ذلك، إلا أن ابن القيم يحاول أن يوسع من دلالات هذه العلامات لتشمل كل أنواع المحبة حتى تلائم ما تصادفه كل نفس من أنواع النفوس الثلاثة من محبة.

د- صفات المحبة

يرى ابن القيم أن للمحبة صفات تؤكدها، كما أن لها علامات تبينها، ومن هذه الصفات:

١- تقتضي المحبة إفراد الحبيب بالحب، وعدم الجمع بينه وبين غيره فيه؛ إذ إن هذا من موجبات المحبة الصادقة، كما أن قوى الحب متى انصرفت إلى جهة لم يبق فيها متسع لغيرها، ومتى تقسمت قوى الحب بين محال عدة ضعفت لا محالة؛ لذلك يقول تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [١]، فالقلب ليس له إلا وجهة واحدة إذا مال بها إلى جهة لم يمل إلى غيرها[٢].

وهنا يتفق ابن القيم مع ابن حزم في إنكار الأخير على من يزعم أنه يحب أكثر من شخص في وقت واحد، إذ إن من يزعم أنه يحب اثنين ويعشق شخصين متغايرين، إنما يكون هذا من جهة الشهوة، وهي على المجاز تسمى محبة لا على التحقيق[٣]، ويذهب ابن القيم إلى أن المحبوب لذاته لا يمكن أن يكون إلا واحدًا، ومستحيل أن يوجد في القلب محبوبان لذاتهما، كما يستحيل أن يكون في الخارج ذاتان قائمتان بأنفسهما كل ذات منهما مستغنية عن الأخرى من جميع الوجوه[٤].

٢- الغيرة، وأصل الغيرة الحمية والأنفة، والغيرة نوعان: غيرة للمحبوب، وغيرة عليه، فأما الغيرة له فهي الحمية له والغضب له إذا استهين بحقه وانتقصت حرمته، وناله مكروه من عدوه؛ فيغضب له المحب ويحمي وتأخذه الغيرة له بالمبادرة إلى التغيير ومحاربة من آذاه، أما الغيرة على المحبوب فهي أنفة المحب وحميته من أن يشاركه في محبوبه غيره، وهي نوعان: غيرة المحب أن يشاركه غيره في محبوبه، وغيرة المحبوب على محبه أن يحب معه غيره، وغيرة العبد على محبوبه نوعان كذلك: غيرة ممدوحة يحبها الله، وغيرة مذمومة يكرها الله، فالتي يحبها الله هي أن يغار عند قيام الريبة، والتي يكرهها أن يغار من غير ريبة بل من مجرد سوء الظن، وهذه الغيرة تفسد المحبة، وتوقع العداوة بين المحب ومحبوبة[٥].

---

(١) سورة الأحزاب ، آية ٤ .
(٢) ابن القيم: روضة المحبين، ص ٢٠٥ . أيضًا: ابن القيم: الداء والدواء، ص ٤٢٤ .
(٣) ابن حزم: رسالة «طوق الحمامة» ، ص ١٢٣ .
(٤) ابن القيم : روضة المحبين، ص ٢٠٨ .
(٥) المصدر السابق، ص ٢١١ .

٣- كلما قويت المحبة قويت اللذة بإدراك المحبوب؛ إذ إنه كلما كانت المحبة أقوى كانت لذة المحب أكمل، فلذة من اشتد ظمؤه بإدراك الماء الزلال، ومن اشتد جوعه بأكل الطعام الشهي، ونظائر ذلك على حسب شوقه وشدة إرادته ومحبته، كما أن النفس خُلقت متحركة بالطبع كحركة النار، فالحُب هو حركتها الطبيعية، وكل من أحب شيئًا من الأشياء وجد في حبه لذة وروحًا، فإذا خلا عن الحُب مطلقًا تعطلت النفس عن حركتها وثقلت وكسلت وفارقها خفة النشاط؛ لذلك فإن اللذة بإدراك المحبوب تقوى بالمحبة[١].

٤- كمال المحبة في كمال الوصال الذي أباحه الله تعالى شرعًا وقدرًا، أي بالزواج؛ إذ إن للزواج فوائد كثيرة، منها إكمال اللذة، وكمال الإحسان إلى الحبيب، وحصول الأجر، وثواب الصدقة، وفرح النفس، وذهاب أفكارها الرديئة عنها، وخفة الروح، وذهاب كثافتها، واعتدال المزاج، وجلب الصحة، فإن صادف ذلك وجهًا حسنًا، وخُلقًا دمثًا، وعشقًا وافرًا، ورغبة تامة، فتلك اللذة التي لا يعادلها شيء هذا من ناحية، وعلى الجانب الآخر فإن كمال الوصال المحرم شرعًا يفسد الحُب، ولابد أن تنتهي المحبة في هذه الحالة الأخيرة إلى المعاداة، والتباغض، والكره[٢].

هذا عن المحبة التي تعد جنسًا يندرج تحتها أنواع أخرى منها العشق، إذ إن كل عشق يعد حُبًا ، وليس كل حُب يعد عشقًا؛ لذلك حاول ابن القيم بيان حقيقة العشق وأوصافه وأقسامه، كما عَدَّه داء يحتاج إلى دواء.

٢- العشق عند ابن القيم

إذا كانت المحبة ممدوحة؛ لأن بها وجد العالم، وبها تتحرك الأفلاك، والشمس، والقمر، والنجوم، والملائكة ، والحيوانات، فإن العشق مذموم ؛ إذ إنه داء يحتاج إلى دواء.

أ- حقيقة العشق وأوصافه: يقول ابن القيم: إن الأطباء قالوا عن العشق: إنه مرض وسواسيّ شبيه بالماليخوليا، يجلبه المرء إلى نفسه بتسليط فكره على استحسان بعض الصور والشمائل، وسببه النفسانيّ الاستحسان، وسببه البدنيّ الشهوة[٣].

---

(١) ابن القيم: الداء والدواء، ص ٥٤٠ .
(٢) ابن القيم: روضة المحبين، ص ١٥٦ .
(٣) المصدر السابق، ص ٩٩ .

ويورد ابن القيم عن الفلاسفة قولهم: إن العشق طمع يتولد في القلب ويتحرك، وينمى، ثم يتربى ويجتمع إليه مواد من الحرص، وكلما قوي ازداد صاحبه في الاهتياج، واللجاج، والتمادي في الطمع، والحرص على الطلب، حتى يؤديه ذلك إلى الغم، والقلق، ويكون احتراق الدم عند ذلك باستحالته إلى السواد، والتهاب الصفراء، وانقلابها إليه، ومن غلبة السوداء أي الحزن، والهم يحصل له فساد الفكر، ومع فساد الفكر يكون زوال العقل، ورجاء ما لا يكون ، وتمني ما لا يتم حتى يؤدي به ذلك إلى الجنون؛ فحينئذ ربما قتل العاشق نفسه، وربما مات غمًا، وربما نظر إلى معشوقة فمات فرحًا[1].

وقال عنه أفلاطون: العشق حركة النفس الفارغة، أما أرسطو فقال عنه: إنه جهل عارض صادف قلبًا فارغًا لا شغل له من تجارة ولا صناعة، أما الفلاسفة المشاؤون فقالوا: هو اتفاق أخلاق، وتشاكل محبات وتجانسها، وشوق كل نفس إلى مشاكلها ومجانسها في الخلقة القديمة قبل اتصالها بالبدن[2].

وعلى كل حال يعد العشق نوعًا والمحبة جنسًا، وقد دق عن الأفهام مسلكه، وخفي عن الأبصار موضعه، وحارت العقول في كيفية تمكنه، غير أن ابتداء حركته وعظم سلطانه من القلب ثم يغشى سائر الأعضاء فيبدي الرعدة في الأطراف، والصفرة في الألوان، والضعف في الرأي، واللجلجة في الكلام، والزلل والعثار، حتى ينسب صاحبه إلى الجنون[3].

ولكن أيكون العشق اضطراريًّا جبريًّا خارجًا عن سلطة الاختيار أم يكون أمرًا اختياريًّا في مقدور البشر تجنبه؟

يرى ابن القيم أن الناس قد اختلفت في العشق من حيث الاختيار و الاضطرار، فقالت فرقة : إنه اضطراريّ؛ إذ هو بمنزلة محبة الظمآن للماء البارد، والجائع للطعام، وهذا مما لا يُملك، وقالت فرقة أخرى: بل اختياريّ تابع لهوى النفس، وإرادتها، فالعشق حركة اختيارية للنفس إلى نحو محبوبها، وليس بمنزلة الحركات الاضطرارية التي لا تدخل تحت قدرة العبد[4].

---

(١) المصدر السابق، ص ٩٩ .
(٢) المصدر السابق، ص ٩٩ ، ١٠١ .
(٣) المصدر السابق، ص ١٠١ .
(٤) المصدر السابق، ص ١٠٦ .

ويقرر ابن القيم أن مبادئ العشق، وأسبابه اختيارية داخله تحت التكليف ؛ إذ إن النظر ، والتفكير، والتعرض للمحبة أمر اختياريّ، ولكن ما يترتب على تلك المحبة بعد ذلك يصبح أمرًا اضطراريًّا. وهذا بمنزلة السكر من شرب الخمر، فشرب الخمر اختياري وما يتولد عنه من سكر اضطراريّ، ولكن متى كان السبب واقعًا باختياره لم يكن معذورًا فيما ترتب عليه من آثار؛ إذ إن متابعة النظر واستدامة التفكير بمنزلة شرب المسكر فهو يلام على السبب، أما إذا حصل العشق بسبب غير محظور لم يلم عليه صاحبه ، كمن كان يعشق امرأته ثم فارقها وبقى عشقها غير مفارق له[1].

ب– أقسام العشق والعشاق : العشق ثلاثة أقسام – عند ابن القيم – هي[2]:

١– عشق محمود، وهو قربة وطاعة، مثل: عشق الرجل لزوجته، وهذا العشق نافع؛ إذ إنه أدعى إلى المقاصد التي شرع الله تعالى لها الزواج، وأكف للبصر، والقلب عن التطلع إلى غير أهله؛ ولهذا يحمد هذا العاشق عند الله، وعند الناس.

٢– عشق مذموم: وهو مقت من الله، وبعد عن رحمته، وهو يفسد على العبد دينه ودنياه، فما ابتلى به إلا سقط من عين الله تعالى، وطرده، من بابه، وأبعد قلبه عنه، وهو من أعظم الحجب القاطعة عن الله سبحانه وتعالى.

٣– عشق مباح لا يُملك ، كعشق من وصفت له امرأة جميلة، أو رآها فجأة من غير قصد فأورثه ذلك عشقًا لها، ولم يوقعه ذلك العشق في المعصية، فهذا لا يُملك ولا يعاقب عليه، والأنفع له مدافعته ، والاشتغال بما هو أنفع له.

وإذا كان العشق ثلاثة أقسام، فإن العشاق كذلك ثلاثة أقسام فمنهم من يعشق الجمال المطلق، ومنهم من يعشق الجمال المقيد، سواء أطمع بوصله أم لم يطمع، ومنهم من لا يعشق إلا من يطمع في الوصول إليه، وبين هذه الأنواع تفاوت في القوة والضعف، فعاشق الجمال المطلق قلبه يهيم في كل وادٍ، وله في كل صورة جميلة مراد، فهذا عشقه واسع، ولكنه غير ثابت كثير التنقل، وعاشق الجمال المقيد أثبت على معشوقه، وأدوم محبة له، ومحبته أقوى من محبة الأول؛ لاجتماعها في واحد، وتقسيم الأولى، ولكن يضعفها عدم الطمع في الوصال، وعاشق الجمال الذي يطمع في وصاله أعقل العشاق وأعرفهم، وحبه أقوى لأن الطمع في الوصال يمده ويقويه[3].

---

(١) المصدر السابق، ص ١٠٦ .
(٢) ابن القيم: الداء والدواء، ص ٥٦٥- ٥٦٦ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٥٦٧ – ٥٦٨ .

ج- أدوية العشق:

يرى ابن القيم أن دواء العشق المحمود هو كمال الوصال ، أي الزواج، ولكن هل من دواء لشخص غلبه هواه فأوقعه في العشق الممنوع شرعًا؟

نعم، الذي غلبه هواه وشهوته يجب عليه أن يلجأ إلى حاكم العقل، وحاكم الدين.

١- حاكم العقل:

أ- بأن يعلم أن مدمني الشهوات يصيرون إلى حالة يفقدون فيها الإحساس باللذة، وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها؛ لأنها صارت عندهم بمنزلة الحياة التي لابد لهم منها، وعادة مقتضيه ذلك، فيلقي نفسه في المهالك لنيل ما تطالبه به العادة فيخسر دينه ودنياه.

ب- إشعار نفسه باليأس من معشوقه؛ إذ إن النفس متى يئست من الشيء استراحت منه، ولم تلتفت إليه، فإن لم يزل، فيجب أن يعلم أن تعلق القلب بما لا مطمع في حصوله نوع من الجنون، وصاحبه بمنزلة من يعشق الشمس، وروحه متعلقة بالصعود إليها، والدوران معها في فلكها.

ج- يذكر نفسه بقبائح المحبوب، وما يدعوه إلى النفرة عنه، فإنه إن طلبها وتأملها وجدها أضعاف محاسنه التي تدعو إلى حبه[١].

٢- حاكم الدين

إن عجزت هذه الأدوية التي دعا إليها العقل، لم يبق له إلا صدق اللجوء إلى الله الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وليطرح نفسه بين يديه على بابه مستغيثًا به، متضرعًا له، ويعلم أن اتباع الهوى، وركوب الشهوات، وارتكاب المحرمات، يوجب الفقر، ويقصر العمر، ويكسو صاحبه سواد الوجه، والمقت عند الناس، كما أنه يشتت القلب ، ويمرضه، إن لم يمته، ويجلب الهم، والحزن، والخوف، ويبعده عن الله، ويقربه من الشيطان[٢].

كما أن كمال الوصال في العشق الممنوع شرعًا يعد من الكبائر التي حرمها الله تعالى ونهى عنها، قال تعالى: ﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾[٣] ؛ إذ إن الزنا يجمع كل

---

(١) ابن القيم : زاد المعاد ، ج ٤، ص ٢٥١ - ٢٥٢.
(٢) المصدر السابق، ص ٢٥٣ . أيضا: ابن القيم: الداء والدواء، ص ٣٧٧ .
(٣) سورة الإسراء، آية ٣٢.

صفات الشر، من ضعف الدين، وذهاب الورع، وفساد المروءة، وقلة الغيرة على الأهل، والغدر، والكذب ، والخيانة، وقلة الحياء[1].

لذلك يجب على من غلبه هواه فأوقعه في العشق الممنوع شرعًا أن يخاف عقاب الله تعالى، وأن يعف طمعًا في الجنة ،قال تعالى:﴿ فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى﴾ [2].

ونخلص من ذلك إلى أن المفهوم الفلسفيّ والأخلاقيّ للحُب عند ابن القيم، قد اتسم بالدقة والموضوعية؛ إذ إنه قد استطاع أن يحلل دقائق النفس البشرية ويكشف عن مكنوناتها في الحُب، كما أنه يوسع من مفهوم الحُب والمحبة حتى يجعله سببًا لوجود العالم كله وحركته، كما يتضح أصالة تفكير ابن القيم فيما يتعلق بالمحبة ولاسيما في ربط المحبة بالعقيدة.

---

(١) ابن القيم: روضة المحبين، ص ٣٦٦ .
(٢) سورة النازعات، آية ٣٧ - ٤١ .

وفي نهاية البحث توصلت إلى النتائج الآتية:

أولاً– يدل المفهوم الفلسفيّ والأخلاقيّ للحُب في الفكر الإسلاميّ، ولاسيما عند كل من ابن حزم، وابن الجوزيّ، وابن القيم على فهمهم العميق لطبيعة النفس الإنسانية، وتحليلها؛ للكشف عن دقائقها ومكنوناتها، وفهم الطبائع المختلفة للبشر، واستقراء أحوالها؛ مما يدل على الجدة والأصالة في آرائهم المختصة بالحُب، ولا سيما لدى ابن حزم؛ إذ إنه يستشهد على آرائه بما وقع له في حياته الخاصة، وحياة أصدقائه، ومعارفه، وكذلك الحال لدى ابن الجوزيّ وابن القيم؛ مما يؤكد أصالة آرائهم في فلسفة الحُب.

ثانيًا– تأثر المفهوم الفلسفيّ والأخلاقيّ للحُب لدى كل من ابن حزم، وابن الجوزيّ، وابن القيم بما نصت عليه الشريعة من قبح المعصية، وفضل التعفف في الحُب، فحرص كل منهم على تأكيد الحُب الذي لا إفراط فيه، أي لا يتجاوز حد الاعتدال، ولا يوقع صاحبه في المعصية، بل إن ابن القيم ذهب أبعد من ذلك عندما ربط الحب بالإرادة الإلهية التي أوجدت العالم، فيكون العالم قد وجد بالمحبة ولأجلها يتحرك العالم كله بما فيه من أفلاك وشموس وكواكب وملائكة وبشر وحيوان، ومع ذلك لا يمكن إغفال أثر الفلسفة اليونانية، ولاسيما أفلاطون فيما يتعلق بنظرية الأرواح المقسومة، والتقسيم الثلاثيّ للنفس.

ثالثًا– فرق كل من ابن حزم، وابن الجوزيّ، وابن القيم بين الحُب والعشق، فالحُب ممدوح ولا سيما في حالة كمال الوصال بالزواج؛ لما فيه من صفاء روحيّ، وكمال نفسيّ وبدنيّ، وراحة للبال، وتفرغ للأعمال، ولاسيما إذا صادف وجهًا حسنًا يبادله ذلك الحُب، أما العشق فهو مرض يجب الشفاء منه، إذا أهمل علاجه استفحل وأفسد البدن، وأتلف العقل، وربما وصل الأمر إلى حد الجنون؛ لذلك اهتم كل منهم بوصف الدواء المناسب لعلاج العشق.

رابعًا– المفهوم الفلسفيّ والأخلاقيّ للحُب في الفكر الإسلاميّ لا ينصرف إلى عاطفة الحب بين الرجل والمرأة فقط، بل إنه مفهوم عام يندرج تحته أنواع كثيرة من الحب أعلاها منزلة محبة الله تعالى، التي بها رضا الله والفوز بالجنة، وأدناها محبة العشق، التي قد تفسد على الإنسان دنياه وآخرته، لذلك نجد ابن القيم يصف رأيه عن الحُب في " روضة المحبين " بأنه يصلح لسائر طبقات الناس؛ إذ إنه عون على الدين وعلى الدنيا، ومرقاة

للذة العاجلة والآجلة ، كما أن الحُب يؤثر في أخلاق من أحب؛ إذ إن المحب يحاول أن يصرف طباعة قسرًا لإرضاء محبوبه فتعود المعصية طاعة، والشراسة لينًا ، وقلة الاحتمال صبرًا وهكذا، وقد حاول كلٌّ من ابن حزم ،وابن الجوزيّ ،وابن القيم إبراز أثر الحُب في سلوك من أحب ؛فجاءت آراؤهم معبرة أصدق تعبير عن الفلسفة الأخلاقية للحُب في الإسلام .

المصادر والمراجع

أولاً- المصادر

١- ابن الجوزيّ (أبو الفرج عبد الرحمن): ذم الهوى، تحقيق خالد عبد اللطيف، دار الكتاب العربيّ، ط ١، بيروت، ١٩٩٨ م.

٢- ابن الجوزيّ (أبو الفرج عبد الرحمن): الطب الروحانيّ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، من دون تاريخ.

٣- ابن حزم (أبو محمد على بن أحمد): رسالة «طوق الحمامة في الأُلفة والألاف» تحقيق إحسان عباس، ضمن رسائل ابن حزم الأندلسيّ، ج ١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط ٢، بيروت، ١٩٨٧ م.

٤- ابن حزم (أبو محمد على بن أحمد): رسالة «مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق»، تحقيق إحسان عباس، ضمن رسائل ابن حزم الأندلسيّ، ج ١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ٢، بيروت، ١٩٨٧ م.

٥- ابن داود (أبو بكر محمد): كتاب الزهرة، تحقيق إبراهيم السامرائي، ج ١، مكتبة المنار، ط ٢، الأردن ، ١٩٨٥م.

٦- ابن سينا (أبو على الحسين): القانون في الطب، ج ٢، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت، ١٩٩٩م.

٧- ابن عربيّ (محي الدين محمد): الحُب والمحبة الإلهية، جمع وتحقيق محمود الغراب، دار الإيمان، دمشق، ١٩٩٢م.

٨- ابن القيم (شمس الدين أبو عبد الله محمد): الداء والدواء، دار العالم الفوائد، مطبوعات مجمع الفقه الإسلاميّ، جدة، من دون تاريخ.

٩- ابن القيم (شمس الدين أبو عبد الله محمد): زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط، ج ٤، مؤسسة الرسالة، ط ٣، بيروت، ١٩٩٨م.

١٠- ابن القيم (شمس الدين أبو عبد الله محمد): الروح، تحقيق محمد أجمل أيوب الإصلاحي، دار عالم الفوائد، مجمع الفقه الإسلاميّ، جدة، من دون تاريخ.
١١- ابن القيم (شمس الدين أبو عبد الله محمد): روضة المحبين ونزهة المشتاقين، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط ٢، بيروت، ٢٠٠٣م.
١٢- ابن القيم (شمس الدين أبو عبد الله محمد): مدارج السالكين ، تحقيق محمد المعتصم بالله البغداديّ، ج ٣، دار الكتاب العربي، ط ٧، بيروت، ٢٠٠٣م.
١٣- أفلاطون: محاورة المأدبة ، ضمن المحاورات الكاملة، نقلها إلى العربية، شوقي داود تمراز ، م / ٤، الأهلية للنشر، بيروت، ١٩٩٤م.

ثانيًا- المراجع:

١- إبراهيم (دكتور: زكريا إبراهيم): ابن حزم الأندلسيّ، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦م.
٢- إبراهيم (دكتور: زكريا إبراهيم): مشكلة الحُب، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٨٤م.
٣- أبو زهرة (دكتور: محمد أبو زهرة): ابن حزم حياته وعصره – آراؤه وفقه، دار الفكر العربيّ، القاهرة، ١٩٥٤م.
٤- بنيعيش (دكتور: محمد بنيعيش): الفكر السلوكيّ عند ابن حزم الأندلسيّ ، دار غراب، القاهرة، ٢٠٠٨م.
٥- الشارونيّ (يوسف الشارونيّ): الحُب والصداقة في التراث العربيّ والدراسات المعاصرة، دار المعارف، ط ٣، القاهرة، من دون تاريخ.
٦- الشارونيّ (يوسف الشارونيّ): دراسات في الحُب، دار الهلال ، العدد ١٨٥، القاهرة، ١٩٦٦م.
٧- كرم (دكتور: يوسف كرم): تاريخ الفلسفة اليونانية، هنداويّ، القاهرة، ٢٠١٢م.
٨- مطر (دكتور: أميرة حلمي): الفلسفة اليونانية تاريخها ومشكلاتها، دار قباء، القاهرة، ١٩٩٨م.
٩- مكي (دكتور: الطاهر أحمد): دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، مكتبة وهبة، ط ٢، القاهرة، ١٩٧٧م.